جامعة الفيوم
كلية دار العلوم
قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

دراسات تاريخية في

دولة الخلافة الإسلامية
في العصر العباسي الأول

وقراءة في سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ

إعداد

الدكتور / صبحي عبد المنعم محمد

الدكتور / عبد الباري محمد الطاهر

الطبعة الأولى

الناشر دار الفتح

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

جامعة الفيوم
كلية دار العلوم
قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

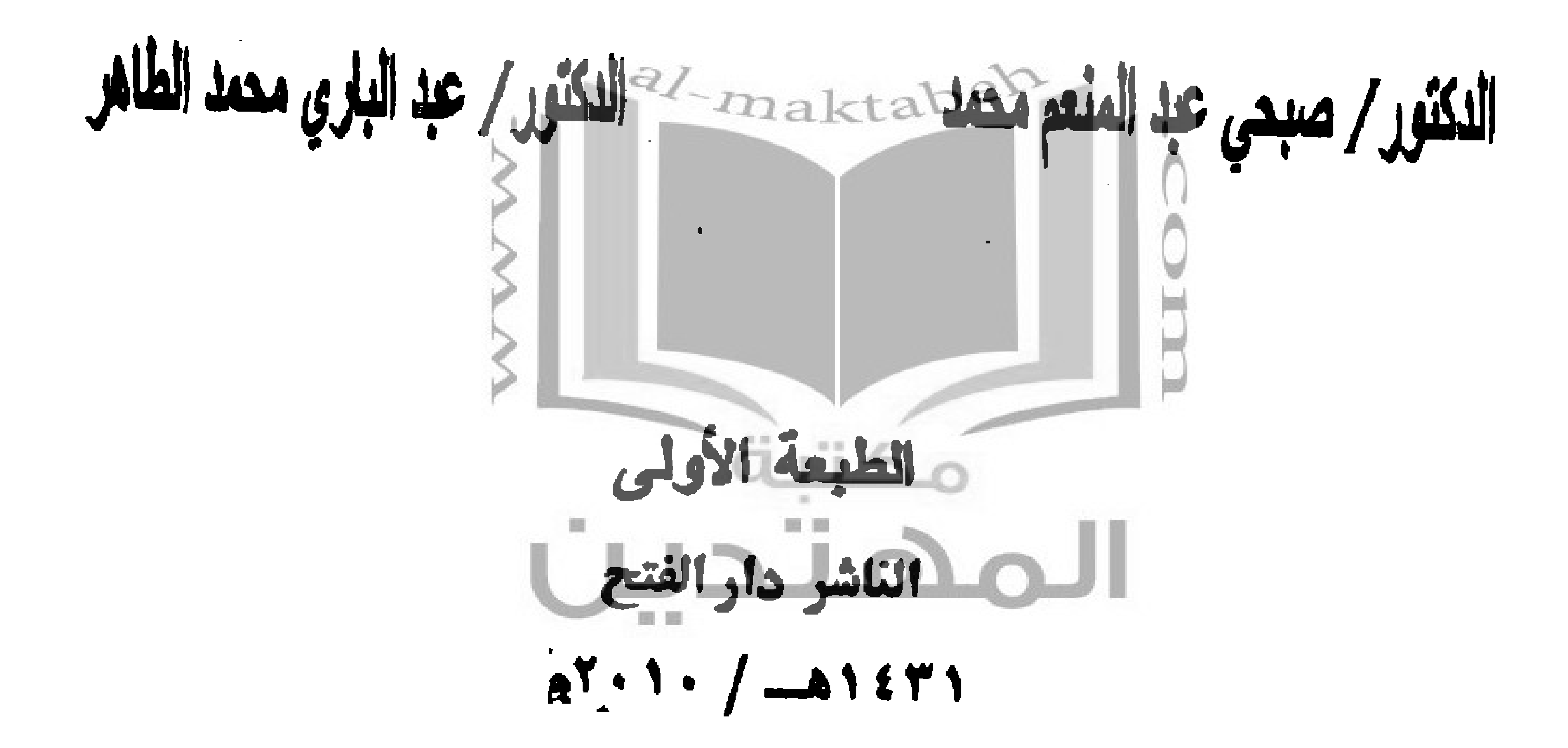
دراسات تاريخية في

دولة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي الأول

وقراءة في سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ

إعداد

الدكتور / صبحي عبد المنعم محمد — الدكتور / عبد الباري محمد الطاهر



الطبعة الأولى
الناشر دار الفتح
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم فاتحة كل خير ، والحمد لله رب العالمين تمام كل نعمة ، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد :

فموضوع " دولة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي الأول " موضوع غاية في الأهمية ، حيث شملت فترة هذا الدراسة جزءا من خير القرون ، فنالت قبسا من النور والخير والعطاء ، وأعطت للأمة الإسلامية زادا بقي إلى يومنا هذا مفخرة من مفاخرها ، وعلامة من علامات الرقي الإنساني والحضاري .

أهداف دراسة هذا الموضوع :

إن التاريخ شعاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل ، وما لم تهتم أمة بماضيها ، للتواصل مع إيجابياته ، وتلافي سلبياته ، فإنها أمة أبسط ما يقال عنها "ميتة" ، ولا قرار لها ، وستفقد حيويتها، وتتهاوى ، ويصبح من السهل الالتفاف حولها كالتفاف الأكلة إلى قصعتهم ، ثم ما تلبث أن تلقى في مهب الريح .

* لهذا كانت دراسة تاريخ دولة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي الأول متمما لدراسات سبقت في تاريخ الإسلام والمسلمين .

* والتعرف على دولة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي الأول يفتح آفاقا رحبة لأبنائنا وشباب أمتنا ، ليدركوا عن كثب كيف تقام الدول ، وتنشأ القيادات ، وتوظف الطاقات ، وتتحقق الأهداف بالصبر والثبات والعزيمة والتضحية والإيمان الراسخ وصلاح النية ؟

* وعرض مظاهر الحضارة في دولة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي الأول ، سواء أكانت حضارية فكرية أم تجريبية أم معمارية ، أم سلوكية ، يسهم في إدراك قيمة العطاء، وفضل الإبداع ، الذي يحيي ذكر صاحبه ، ويكون خيرا تتوارثه الإنسانية جيلا بعد جيل .

* إن الاهتمام بدراسة تاريخ دولة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي الأول والتعرف على الأجناس البشرية التي أسهمت في قيام هذه الدولة، وخدمتها يؤكد أن أي عنصر بشري - إن حمل راية التوحيد صار عربيا مسلما ؛ لقوله ﷺ لسلمان الفارسي ﷺ: "سلمان منا آل البيت" ، و" لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى"، فالمقياس ليس بالجنسية بل بالقيمة التي يمثلها المسلم .

* لقد أسهم العرب والفرس والترك في البناء الحضاري للأمة الإسلامية، وفي نشر الإسلام في ربوع البلاد ، فوجب التعرف على بعض هذا الجهد .

وستركز هذه الأوراق التي بين أيدينا على ما يلي :

* دولة الخلافة الإسلامية حتى نهاية العصر العباسي الأول.
* أبرز المظاهر الحضارية في دولة الخلافة العباسية في العصر العباسي الأول .
* دور العرب والفرس والترك في صياغة مجتمع إسلامي في العصر العباسي الأول .
* الخليفة المستعصم ووزيره وأثرهما في سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ .

وفي ثنايا هذه الأوراق سنحاول بإذن الله تعالى أن نتلمس مع أبنائنا طليعة هذا الجيل : كيف نستخلص العبر والعظات.

ونسأل الله تعالى أن يجمع شمل الأمة الإسلامية من جديد، وتعود على منهاج النبوة ، وتحقق الخير للبشرية بالتزام منهج الله الحكيم العليم .

كما نسأله جل وعز أن يحقق الأهداف التي وضعت هذه الأوراق لأجلها.

والله من وراء القصد ، ولله الحمد والمنة .

تمهيد

بدأت دولة الخلافة الإسلامية تحت قيادة العباسيين منذ سنة ١٣٢هـ إلى أن سقطت في بغداد سنة ٦٥٦ للهجرة ، ثم عادت دولة الخلافة بعد عامين في القاهرة بقيادة العباسيين إلى أن استلمها منهم العثمانيون في مصر سنة ٩٢٣ للهجرة.

ودولة الخلافة الإسلامية في مرحلتها الأولى في ظل العباسيين كانت – كما يقول ابن طباطبا:"كثيرة المحاسن، جمة المكارم، أسواق العلوم فيها قائمة، و بضائع الآداب فيها نافقة، و شعائر الدين فيها معظمة، و الخيرات فيها دائرة، و الدنيا عامرة، و الحرمات مرعية، و الثغور محصنة، و مازالت على ذلك حتى أواخر أيامها، فأنتشر الشر، و اضطرب الأمر".

ويقسم بعض المؤرخين دولة الخلافة في ظل العباسيين في المرحلة الأولى (من ١٣٢إلى ٦٥٦هـ) ثلاثة عصور رئيسية هي:

- العصر العباسي الأول: يمتد في الفترة من ١٣٢ إلى ٢٣٢ للهجرة
- العصر العباسي الثاني: يمتد في الفترة من ٢٣٢ إلى ٥٩٠ للهجرة
- العصر العباسي الثالث: يمتد في الفترة من ٥٩٠ إلى ٦٥٦ للهجرة

ومن المؤرخين من يقسم هذه الفترة إلى أربعة أقسام ، حيث يجعلون العصر العباسي الثاني ينتهي بسنة ٣٣٤ هـ ، حيث سيطر الأتراك على دولة الخلافة ، ثم يجعلون العصر الثالث ينتهي سنة ٤٤٩ هـ حيث كانت سيطرة البويهيين على دولة الخلافة ، ثم يكون العصر الرابع الذي ينتهي بسقوط دولة الخلافة في بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وفي هذه الفترة كان المسيطر على دولة الخلافة الأتراك السلاجقة .

ويرى مؤرخون آخرون أن العصر العباسي الأول الذي يبدأ بسنة ١٣٢هـ ، كان يتسم بنفوذ الخلفاء أنفسهم ، وسيطرتهم إلى حد كبير على مقاليد الحكم ، وانتهي هذا العصر سنة ٢٣٢ هـ، مع أول نفوذ واضح لغير الخلفاء ، ثم استمر فقدان الخلفاء السيطرة الكاملة على مقاليد السلطة ، ومن هنا بدأ العصر الثاني للدولة .

ومن الملاحظ أنه في ظل دولة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي "استقلّت بعض الدول عنها استقلالا تاما، بينما أخذ بعضها يتجه نحو استقلال جزئى تصبح البلاد فيه تابعة للخلافة اسمًا (فقط) بحيث تستمد منها مكانتها الروحية وقدرها العظيم فى نفوس المسلمين.

ويقف المؤرخون والمحللون أمام قيام بعض الدول وانهيار أخرى وقفات تأملية يبحثون عن الأسباب والعوامل التى أدت إلى قيام هذه وانهيار تلك.

وعلى كلٍّ، فقد كان قيام الدويلات نتيجة لضعف الخلافة، وسببًا لمزيد من الانحلال، وخطوة على طريق النهاية، لقد قامت أولى هذه الدويلات فى أقصى الغرب؛ لبعده عن عاصمة الدولة، ومركز السلطان فيها، فقامت دولة الأمويين فى الأندلس، وبقيامها فى سنة ١٣٧هـ/٧٥٦م ضعف نفوذ العباسيين على الغرب، وسرعان ما نشأت الدويلات فى شمال إفريقية.

وحين تطرق الضعف إلى جسد الخلافة العباسية جميعًا، نشأت الدويلات فى بقية أجزاء الدولة، وقد تسببت هذه الدول فى ضعف الدولة العباسية وانحلالها؛ ذلك لأنَّ علاقة هذه الدويلات بالدولة العباسية كانت مختلفة اختلافًا كبيرًا، فقد انفصل بعضها عن الدولة انفصالا تامًا، ونافسها بعضها على تولى الخلافة نفسها.

كما ظل قسم آخر على علاقة اسمية بالدولة، فيكفى الخليفة أن يذكر اسمه على المنابر، ويصك على العملة، وفى حقيقة الأمر أنها دولة مستقلة تمامًا لا تخضع له فى شىء. وهناك دويلات ظلت على صلة متغيرة بالدولة، تقوى حينًا،

وتضعف حيناً آخر تبعاً لتغير الأحوال.

وفيما يلي نذكر هذه الدول والإمارات، التي انفصلت عن دولة الخلافة العباسية،وهي:

أولا: الإمارة الأموية في الأندلس.

ثانيًا: الدول في بلاد المغرب وهي: الدولة الرستمية. ودولة الأدارسة. ودولة الأغالبة.

ثالثًا: الدول في بلاد الشرق، وهي: الدولة الطاهرية ، والدولة الصفارية ، والدولة السامانية ، والدولة الغزنوية.

رابعًا: الدول في مصر والشام، وهي: الدولة الطولونية ، والدولة الإخشيدية ، والدولة الحمدانية ، والدولة الفاطمية ، والدولة الأيوبية ، والدولة المملوكية".

إن الدولة العباسية لو تنبهت إلى حقيقة وظيفتها كدولة إسلامية، وهي نشر الإسلام لا مجرد المحافظة عليه كما وجدته، لو أنها قامت برسالتها وأدخلت كل الترك والمغول في الإسلام، لأدت للإسلام والحضارة الإنسانية أجلّ الخدمات، ولغيّرت صفحات التاريخ. وهكذا تكون الدولة العباسية قد خذلت الإسلام في الشرق والغرب. فهي في الشرق لم تتقدم وتُدخل كل الأتراك والمغول في الإسلام، كما تمكنت الدولة الأموية من إدخال الإيرانيين ومعظم الأتراك في الإسلام وفتحت أبواب الهند لهذا الدين. وفي الغرب قعدت الدولة العباسية عن فتح القسطنطنية ولو أنها فعلت ذلك لدخل أجناس الصقالبة والخزر والبلغار الأتراك في الإسلام تبعاً لذلك، إذ لم تكن قد بقيت أمام هذه الأجناس العظيمة أية ديانة سماوية أخرى يدخلونها وهنا ندرك الفرق الجسيم بين الدولة الأموية والدولة العباسية. فالأولى أوسعت للإسلام مكاناً في معظم أراضي الدولة البيزنطية، وأدخلت أجناس البربر جميعاً في الإسلام، ثم انتزعت شبه جزيرة أيبريا (الأندلس) من القوط الغربيين، ثم اقتحمت على الفرنجة والبرغنديين واللومبارد بلادهم بالإسلام، وحاولت ثلاث مرات الاستيلاء على القسطنطنية. أما العباسيون فلم يضيفوا -رغم طول عمر دولتهم- إلى عالم الإسلام إلا القليل، ومعظمه في شرقي آسيا الصغرى.

نسب العباسيين :

يرجع نسب العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب ﷺعم الرسول ﷺ .

فمؤسس الدولة العباسية وخليفتها الأول هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ .

تأليف الجمعية السرية للدعوة العباسية :

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعلي بن عبد اللّه بن عباس حي لم يمت بعد لأنها ابتدأت في أول القرن الثاني وعلي لم يمت إلا سنة ١١٧ هـ على قول و سنة١١٤ هـ على قول آخر، وكان الخليفة من بني أمية إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان، وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء.

وجعل للدعوة مركزان أحدهما بالكوفة التي اعتبرت نقطة المواصلات و أقيم فيها ميسرة مولى علي بن عبد اللّه. والثاني بخراسان التي هي محل الدعوة الحقيقي، ووجه إليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج، واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً وهم:

(١) سليمان بن كثير الخزاعي

(٢) مالك بن الهيثم الخزاعي

(٣) طلحة بن زريق الخزاعي

(٤) عمرو بن أعين الخزاعي

(٥) عيسى بن أعين الخزاعي

(٦) قحطبة بن شبيب الطائي

(٧) لاهز بن قريظ التميمي

(٨) موسى بن كعب ا لتميمي

(٩) القاسم بن مجاشع التميمي

(١٠) أبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني

(١١) أبو علي ا لهروي شبل بن طهمان الحنفي

(١٢) عمران بن إسماعيل المعيطي

واختار سبعين رجلاً ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء، وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها.

وبقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثاني الهجري إلى سنة ١٣٢هـ وهي السنة التي تم فيها النجاح وبويع فيها لأبي العباس السفاح.

وهذه المدة تنقسم إلى قسمين متمايزين: الأول عصر الدعوة المحضة الخالية عن استعمال القوة وذلك قبل أن ينضم إلى القوة أبو مسلم الخراساني، وذلك في الوقت الذي كانت فيه الدولة الأموية متماسكة القوى لم ينقسم فيها البيت المالك على نفسه ولم تحصل العصبية القومية بين جند هذه الدولة بخراسان ومدة ذلك نحو ٢٧ سنة، والعصر الثاني عصر استعمال القوة مع الدعوة حينما تهيأت الأسباب الداعية إلى ذلك.

العصر الأول (١٠٠ - ١٢٧هـ) كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخراسانية، ظاهر أمرهم التجارة وباطنه الدعوة، ينتهزون الفرص، ثم يبلغون أمرهم إلى القائم بالكوفة وهو يوصله إلى الحميمة أو إلى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج. وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لأمر الدعاة لأنهم كانوا إذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجاً. وكانت إقامة محمد بن علي بالحميمة سبباً آخر في انتظام المواصلات وكتم سرها.

وكان أول ما ظهر من أمرهم بخراسان سنة ١٠٢هـ حيث جاء رجل من تميم إلى أمير خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص الذي قال له سعيد خذينة وقال له: إن ههنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح، فبعث إليهم سعيد فأتى بهم فسألهم: من أنتم؟ قالوا: أناس من التجار؟ قال: فما هذا الذي يحكى عنكم؟ قالوا: لا ندري؟ قال: جئتم دعاة؟ فقالوا: إن لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلاً عن هذا. فسأل من يعرف هؤلاء. فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن، فقالوا نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شيء تكرهه. فخلى سبيلهم.

وفي سنة١٠٥هـ انضم إلى هذه الجمعية بكير بن ماهان وهو شيخ عظيم من شيوخ هذه الدولة وكبار دعاتها وكان موسراً فساعد ال قوم بماله، وصادف أن توفي في ذلك الوقت ميسرة القائم بالكوفة، فأقامه محمد بن علي مقامه فكان هو ربان هذه الدعوة يأتمر الدعاة بأمره ويسيرون في الطريق التي يشرعها لهم.

كان من أول النكبات الي لحقت بهم أنه وشي بجمع من دعاتهم إلى أسد بن عبد اللّه القسري أمير خراسان وهو والٍ شديد قاس فأتى بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادي فقطع أيدي من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم، وأفلت عمار العبادي حتى أتى الكوفة فأخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشؤوم، فكتب به إلى محمد بن علي فأجابه: الحمد للّه الذي صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل وقد وقع بعد ذلك عمار العبادي في يد أسد فألحقه بإخوانه.

وكان أسد بن عبد اللّه أشد ولاة خراسان على الشيعة فكان لا يرحم أحداً منهم وقع في يده بل شرد بهم ونكل ونفي من نفي وقتل من قتل ولذلك لم يكن للدعوة في أيامه كبير أثر حتى عزل عن خراسان سنة١٠٩ هـ وتلك ولايته الأولى ثم ولي خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الأولى ففي سنة ١١٧ هـ أخذ جماعة منهم فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس البعض الآخر.

ثم حدث بعد ذلك في العالم الإسلامي ما كان له أعظم الفضل في نجاح الشيعة وقصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك:

أولاً: انشقاق البيت الأموي حتى تزعزع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك واستعان على ذلك بالقدح في الوليد واتهامه بالعظائم من الفسوق والكفر وإحلال ما حرم اللّه.

ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فإنه كتب إلى الغمر بن يزيد أخي الوليد يهيجه للمطالبة بدم أخيه.

وكان مروان في ذلك الوقت أميراً للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يأتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة مستمسكاً بهذا الحبل حتى نالها ولم يكن نيله لها بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق في هذا البيت ولا شك أن انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال انشقاقاً في قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها.

ثانياً: ظهور العصبية القومية في خراسان وانشقاق القبائل العربية وذلك أن العرب يرجعون إلى شعبين عظيمين قحطان ونزار، وملك العرب القديم كان في اليمن فلما جاء الإسلام تحول إلى نزار لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان أمر النبوة والوحي قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة إلى أعدائهم فنالوا في زمن قليل ما لم تنله أمة قبلهم في مثل الزمن الذي ارتفع فيه قدرهم.

وظهر الانشقاق في عهد نصر بن سيار هذا بين النزارية واليمانية وكان رئيس النزوارية وكبيرهم نصر بن سيار الأمير وكبير اليمانية جديع بن شبيب المعني المعروف بالكرماني.

في أثناء وقوع هذه الحوادث توفي محمد بن علي إمام الشيعة الذي يدعون إليه وأدلى بالأمر من بعده إلى ابنه إبراهيم وأعلم الشيعة بذلك فقاموا بالدعوة إليه مكان أبيه. ثم توفي بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفة فأقام إبراهيم بن محمد مكانه حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال.

واتصل بإبراهيم في تلك الأوقات شاب من نوابغ الشبان و ذوي المقدرة والعزيمة وهو أبو مسلم الخراساني، وكانت الشيعة بخراسان في حاجة إلى مثله ليشرعوا في العمل بعد أن أمكنتهم الفرصة بما وقعت فيه

الدولة الأموية من الخلاف وما يقع فيه عرب خراسان من الانشقاق فاختـار إبراهيم أبا مسلم لتلك المهمة وكتب إلى أصحابه إني قد أمرته بأمري فاسمعوا منه وا قبلوا قوله فإني قد أمرته على خراسان.

ثم أمره بتقريب أهل اليمن لأنهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبية التـي كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان إذ ذاك ولهذا السبب أوصاه بالشدة علـى مضر فإنهم كانوا أصحاب الدولة. سار أبو مسلم يدبر الأمور. وبعد سنة تهيأ لزيارة الإمام ومعه عدد كبير من الدعاة ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الإمام يقول فيه وإني قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيـث أ لقـاك كتـابي ووجه إلى قحطبة بما معك يوافني به في الموسم فعاد أبو مسلم إلـى مـرو مستعداً للعمل.

اكتشاف أمر الدعوة :

مضت هذه المدة كلها وليس عند بني أمية علم بما تدعو إليـه الشـيعة فإنهم كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولا يعلم السر إلا النقباء والدعاة أما ا لعامة فمبلغ علمها أنها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع في يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم إلى أبي مسلم جواب كتـاب لأبي مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فأرسل مروان فـي الحال إلى عامله بدمشق يأمره بالكتابة إلى صاحبه بالبلقـاء أن يسـير إلـى الحميمة ويأخذ إبراهيم بن محمد يوجه به إليه ففعل العامل ما أمر به وقـبض على إبراهيم ولما أحس إبراهيم بما يراد به نعى نفسه إلى أهل بيته وأوصـى إلى أخيه أبي العباس وأمر أهله بالسير إلى الكوفة والسـمع والطاعـة لأبـي العباس. أما إبراهيم فحبس في سجن حران مع جماعة من أعداء مروان مـن بني أمية ولم يزل في سجنه حتى مات.

وأما أهل بيته فتجهزوا سرا إلى الكوفة حتى قدموها في صفر سنة١٣٢ هـ ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال الذي كان يعرف في ذلك ا لوقـت

بوزير آل محمد فأنزلوهم في إحدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لا يزال في معسكره بحمام أعين خارج الكوفة.

خرج أبو العباس يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول فصلى بالناس وكان مما ذكره في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه أن افتخر بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بني حرب وبني مروان أثرتهم وظلمهم ثم قال: وإني لأرجو أ لا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن علي ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المتيح وبهذه الجملة الأخيرة لقب بالسفاح، وبعد أن بلغوا هذا المبلغ بقي عليهم أن يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التي بالجزيرة وعلى ابن هبيرة والقوة التي معه بواسط.

كان مروان بحران معه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاختار أبو العباس من أهل بيته عمه عبد الله بن علي ليكون قائداً للجنود التي اختيرت لحرب مروان. وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق وكانت الواقعة شديدة وانتهت بانتصار عبد الله وجنده فهرب مروان واحتوى عبد الله معسكره كله وذلك لإحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة سنة١٣٢ هـ وكان مع مروان من الجنود ١٢٠ ألفاً من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها. انهزم مروان حتى أتى حران وعاملها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد فأقام بها نيفاً و عشرين يوماً ولما دنا منه عبد الله رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد الله فلقيه أبان مسوداً مبايعاً له ودخل في طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة.

مضى مروان حتى أتى قنسرين وعبد الله يتبعه ثم مضى منها إلى حمص ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان فلما أحس باقتراب عبد الله رحل عنها فجاءها عبد الله ودخلها عنوة معترضاً أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل.

مر مروان بالأردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط ومنها خرج إلى بوصير وهي قرية من مركز الواسطي ببني سويف فاستقر بها ينظم جنده.

أما عبد الله بن علي فجاءه كتاب من أبي العباس يأمره أن يوجه صالح بن علي في ملاحقة مروان فسار صالح في ذي القعدة سنة١٣٢ هـ وكان يسير على ساحل البحر والسفن حذاءه حتى وصل إلى مصر ومن هناك سار حتى أتى بوصير وهناك قتل مروان بن محمد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة١٣٢ هـ وبقتله انتهت دولة بني أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة العباسية.

وأما يزيد بن عمير بن هبيرة فإنه لما انهزم من جيش خراسان أتى واسطاً وتحصن بها وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب إلى الكوفة فيقاتل حتى يقتل أو يظفر وحذروه واسطاً كيلا يصير في حصار وليس بعد الحصار إلا القتل فخالف تلك الشورى فسير أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتمى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم. ولما طال الأمر أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين وظلوا هكذا أحد عشر شهراً. ولما أتى ابن هبيرة نبأ قتل مروان بن محمد طلب بمن معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبي جعفر حتى جعل له أماناً وكتب به كتاباً مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى السفاح فأمر بإمضائه وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه وكان السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم فكتب أبو

مسلم إلى السفاح يقول له إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة فأمر السفاح أبا جعفر بأن يقتله.

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الأمان لم يجف وقتل معه عدة من وجوه أصحابه.

كيف آلت الخلافة إلى العباسيين؟

يرى كثير من المؤرخين أن السبب الذي دفع العباسيين إلى نقل الحكم إليهم ، بعد أن كان في يد الأمويين ، هو حالة الضعف الذي منيت به الأمة الإسلامية عموما بسبب ضعف حكام الدولة الأموية .

وتشير الروايات التاريخية إلى أن الناس قد تطلعوا إلى رجل يعود بالأمة إلى الجادة والطريق الصحيح، يرفع عنهم الظلم، ويقيم فيهم العدل، ويرهب بهم الأعداء، فحسبوا أن أصلح الناس لهذا الأمر، رجل يكون من بنى هاشم، فكتبوا فى هذا الشأن إلى "أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ابن على بن أبى طالب" أحد العلماء الثقات، وكان مقيمًا بالشام قريبًا من مركز الخلافة الأموية.

وما لبث أمر تلك المكاتبة أن وصل الخليفة الأموى "سليمان بن عبد الملك"، فخشى أبو هاشم على نفسه –وكانت قد تقدمت به السِّنّ– بطش الخليفة، فانتقل إلى "الحميمة" من أرض الشام؛ حيث يقيم عمه "عليّ السَّجَّاد بن عبد الله بن عباس"، وهناك حضرته منيته، فأوصى إلى "محمد بن على بن عبد الله بن عباس" بما كان من أمر الناس معه، ودفع إليه الكتب التى كتبوها إليه، وقال له: أنت صاحب هذا الأمر، وهو فى ولدك. ثم مات، وكان ذلك فى خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ/ ٧١٨م.

وأخذ محمد بن على بن عبد الله بن عباس فى تنفيذ ما أوصاه به أبو هاشم، فاتصل بالناس، واختار من بينهم دعاة يخرجون وينتشرون فى ربوع الدولة

الأموية، يشهرون بها وينتقدون عيوبها، ويدعون إلى ضرورة أن يتولى أمـر الخلافة رجل من آل البيت قادر على أن يملأ الأرض عدلا، ووجـدت تلـك الدعوة صدى عند الناس ورواجًا.

ويموت محمد بن على بن عبد الله بن عباس سـنة ١٢٤هـ/٧٤٢م، بعدما أوصى ابنه إبراهيم الملقب بالإمام بمواصلة المسيرة.

وتأخذ الدعوة العباسية عند إبراهيم الإمام صورة أخرى غير التى كانت عليها قبل ذلك، فهى لم تكن منظمة، أما الآن فقد صـار لهـا نظـام، وقـادة معلومون، من أمثال أبى سلمة الخلال على الكوفة، وأبى مسلم الخراسانى على خراسان.

وما تكاد سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م، تقبل حتى يصدر أمر الإمام العباسـى "إبراهيم بن محمد" أن يكون "أبو مسلم الخراسانى" رئيسًا للدعاة جميعًـا فـى خراسان وما حولها، وكلَّفه أن يجهر بالدعوة للعباسيين علنًا، وأن يعمل علـى جعل خراسان قاعدة للانطلاق بقواته ضد البيت الأموى.

انتقال الخلافة إلى العباسيين:

بعد هذا العرض يصبح فى مقدورنا أن نعرف كيف تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين.

لقد صدر الأمر إلى أبى مسلم بالجهر بالدعوة للعباسيين فى عهد آخر خلفاء بنى أمية "مروان ابن محمد"، ولم يلبث أبو مسلم أن دخل "مرو " عاصمة خراسان، وكاد أن يستولى عليها إلا أنه لم يتمكن من ذلك هذه المرة؛ وهنا أسرع الوالى علـى خراسان من قبل بنى أمية، وهو "نصر بن سيار" يستغيث بمروان بن محمد ويطلب منه مددًا، وينبه رجال الدولة إلى الخطر المحدق فيقول:

أرى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ نارٍ ... ويُوشِكُ أن يكُونَ لَهَا ضِـرَامُ

فإن النارَ بالعـودين تُذْكى ... وإن الحربَ مبـدؤها كلامُ

فقلت من التعجب ليتَ شِعرى أأيقاظ أميـــــــــة أم نيام؟

ولم يهتم بنو أمية بهذا الأمر بسبب انشـــغالهم بصـــراعات أنصـــارهم القدماء بالشام، وانشقاق زعماء الأمويين على أنفسهم، ولم يمدُّوا واليهم علـــى خراسان بشيء، فأدرك أبو مسلم الخراسانى أن الوالى الأمــوى لــن يصــبر طويلا، وأن "مرو" ستفتح يومًا ما قريبًا، فأخذ يجمع العرب من حوله، ثم انقضَّ بهم على "مرو" ففتحت له، وهرب واليها "نصر بن سيار" وكـــان ذلـــك ســـنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م.

وواصل أبو مسلم فتوحاته، فدانت له "بلخ" و"ســمرقند" و"طخارســتان" و"الطبسين" وغيرها، وتمكن من بسط سيطرته ونفوذه على خراسان جميعًـــا، وراح يتطلع إلى غيرها، وكان كلما فتح مكانًا أخذ البيعة من أهله على كتـــاب الله-عز وجل-وسنة نبيه ("وللرضا من آل محمد"، أى يبايعون إمامًا مرضـــيًا عنه من آل البيت من غير أن يعيِّنهُ لهم.

والواقع أن بنى أمية كانوا نيامًا فى آخر عهدهم، لا يعلمون مـــن أمـــر القيادة الرئيسة لهذه الدعوة العباسية شيئًا، ولما وقع فى يد الخليفة (مروان بـــن محمد) كتاب من "الإمام إبراهيم العباسى" يحمل تعليماته إلى الدعاة، ويكشـــف عن خطتهم وتنظيمهم، كان منشغلا بتوطيد سلطانه المتزعزع وقمع الثـــائرين ضده، واكتفى الخليفة "مروان بن محمد" بأن أرسل إلى القائم بالأمر فى دمشق للقبض على الإمام "إبراهيم بن محمد" "بالحميمة" وإيداعه فـــى الســـجن، وتـــم القبض عليه وأودع السجن، فظل به حبيسًا إلى أن مات فى خلافة مروان بـــن محمد سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م. ولما علم "إبراهيم" بالمصير الذى ينتظره، وعلم أن أنصاره ومؤيديه قد واصلوا انتصاراتهم، وأن الكوفة قد دانت لهم وصارت فى قبضتهم أوصى لأخيه "أبى العباس" بالإمامة طالبًا منه أن يرحل إلـــى الكوفـــة ومعه أهل بيته؛ لينزل على داعى العباسيين بها وهو "أبو سلمة الخلال" فهناك يكـــون فـــى مـــأمن مـــن رقابـــة الأمـــويين وســـلطانهم.

مبايعة أبى العباس:

وهناك في الكوفة -بعد قليل من وصول آل العباس إليها- تمت مبايعة أبى العباس خليفة للمسلمين، وتوجه "أبو العباس" إلى مسجد الكوفة عقب مبايعته بالخلافة فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وألقى على الملأ خطبة كانت بمثابة الإعلان الرسمى عن قيام الدولة العباسية، ومما جاء فى تلك الخطبة: "الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه، وكرمه وشرفه وعظّمه، واختاره لنا، زعم الشامية أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، شاهت وجوههم، بِمَ ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، ودحض الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا، ورفع بنا الخسيسة، وتمم النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة فى دنياهم، وإخوانًا على سرر متقابلين فى آخرتهم، فتح الله ذلك -مِنَّةً وبهجة- لمحمد ، فلما قبضه الله إليه، وقام بالأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، حَوَوْا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصًا منها، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزُّوها وتداولوها، فجاروا فيها واستأثروا بها، وظلموا أهلها، وقد أملى الله لهم حينًا حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وتدارك بنا أمتنا، ووَلِيَ نصرنا والقيام بأمرنا، لَيمُنَّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض، فختم بنا كما افتتح بنا، وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وماتوفيقنا أهل البيت إلا بالله، فاستعدوا أيها الناس، فأنا السَّفَّاح المبيح والثائر المنيح" (يقصد أنه كريم جواد).

ومن هذه المقولة التصقت به صفة السفاح، فقيل أبو العباس السفاح، مع أنه ما قصد ذلك المعنى الذى شاع على الألسنة.

لقد أعلنها صريحة مدوية فى الآفاق بينما كان "مروان بن محمد" آخـر خلفاء بنى أمية يجلس على كرسى الخلافة، فكيف تمت المواجهة بين هـؤلاء وأولئك؟ وكيف تحققت الغلبة للعباسيين؟

اللقاء الحاسم:

يالها من لحظات حاسمة فى تاريخ الأمم والشعوب، إن شمس الأمويين الغاربة تؤذن بالزوال، بينما شمس العباسيين فى صعود، وهذه هى الدنيا، فيوم لنا ويوم علينا، والأيام دُوَل.

وكان اللقاء الحاسم بين الأمويين والعباسيين على أحـد فـروع دجلـة بالقرب من الموصل وهو "نهر الزّاب الأعلى".

فجيش العباسيين يقوده عم الخليفة، وهو "عبد الله بن على"، بينما يقـود جيش الأمويين الخليفة نفسه "مروان بن محمد".

كان ذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سـنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، ولم يجد "مروان" أمام جحافل العباسـيين إلا أن يفـر إلـى "دمشـق" مهزومًـا أمـام مطـاردة "عبـد الله بـن علـى". لقد راح يُطارده، فاستولى على "دمشق"، واستولى على مدن الشام واحدة بعـد الأخرى، وكان استسلام دمشق العاصمة معناه سقوط دولة بنى أمية، وانتهـاء عهدها كعاصمة للدولة الإسلامية، لكن مروان قد فرّ إلى مصر وتوجـه إلـى صعيدها، وقرب الواسطى فى بنى سويف، عند قرية "أبوصير" أُلقِـىَ القـبضُ عليه، وقُتِلَ بعدما ظل هاربًا ثمانية أشهر، يفر من مكان إلى مكان.

ومضى عهد، وأقبل عهد جديد، وسيظل عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م فاصـلا بين عهدين، وتاريخًا لا يُنسى.

خلفاء العصر العباسي الأول

(١) أبو العباس السفاح (عبد الله بن محمد الأمام) أبوالعباس السـفاح :أربـع سنين وتسعة اشهـر توفي في ذي الحجة سنة١٣٦هـ عن ٣٢عاما .

(٢) أبوجعفر المنصور (عبدالله بن محمد الأمام) أبو جعفر المنصور اثنتـان وعشرون سنة توفي في ذي الحجة سنة ١٥٨هـ عن ٦٢عاما

(٣) المهـدي (محمد بن أبي جعفر المنصور) المهـدي بن المنصور : عشر سنين توفي في المحرم سنة ١٦٩هـ عن ٤٣عاما

(٤) الهـادي (موسى بن المهـدي) الهـادي بن المهـدي سـنة وثلاثـة أشهـر توفي في ربيع الأول سنة ١٧٠هـ عن ٣٤عاما

(٥) الرشيد (هـارون بن المهـدي) الرشيد بن المهـدي : ثلاث وعشـرون سنة وستة أشهـر توفي في جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ عن ٤٤عاما

(٦) الأمين (محمد بن الرشيد) الأمين بن الرشيد:أربع سنين وسـتة أشهـر توفي في صفر سنة ١٩٧هـ عن ٢٨عاما

(٧) المأمون (عبد الله الرشيد) المأمون بن الرشيد:عشـرون سـنة وخمسـة أشهـر توفي في رجب سنة ٢١٨هـ عن ٤٢عاما

(٨) المعتصم (محمد بن الرشيد) المعتصم بن الرشيد:ثمـاني سـنين وثمانيـة اشهـر توفي في ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ عن ٤٨ عاما

(٩) الواثق (هـارون بن المعتصم) الواثق بن المعتصم :خمس سنين وتسـعة أشهـر توفي في ذي الحجة سنة ٢٣٢ عن ٣٦ عاما.

وفيما يلي نبذة موجزة عن أبرز شخصيات العصر العباسي الأول :

أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ)

هو أبو العباس عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس. وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله ابن المدان الحارثي. ولد سنة ١٠٤ هـ بالحميمة. بويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ (٣٠ أكتوبر سنة ٧٤٩ م) . ومن هذا اليوم يبتدىء تاريخ خلافة أبي العباس ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة الأنبار يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ (٩ يونيو سنة ٧٥٤ م).

الأحوال الداخلية:

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين فإنه كان لا يزال في الأمة العربية قواد ضلعهم مع بني أمية ولا يزال عندهم شيء من القوة فكانوا يثورون إما خوفاً على أنفسهم من بني العباس الذين أظهروا قسوة شديدة في معاملة مغلوبيهم وإما طمعاً في إعادة تلك الدولة العربية التي كان لهم منها نصيب وافر. فقضى أبو العباس أكثر حياته في إخماد تلك الثورات التي كانت كثيرة ولا سيما بالشام والجزيرة والتغلب على يزيد بن هبيرة الذي كان أمير العراق لمروان بن محمد وتحصن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها.

ولاية العهد:

في سنة ١٣٦ هـ عقد السفاح لأخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين ومن بعد أبي جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن علي وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى وقد ابتدأ السفاح بفعله هذا الخطأ الكبير الذي سبق العمل به في عهد بني أمية وهو تولية اثنين العهد وكان من أسباب ما أصاب بني أمية من الخلاف والفرقة.

وفاة السفاح:

أصيب السفاح بالجدري وهو بالأنبار وتوفي بها في ١٣ ذي الحجة ١٣٦ هـ ودفن بالأنبار في قصره وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته.

أبو جعفر المنصور(١٣٧ - ١٥٨هـ)

هو أبو جعفر عبد اللّه بن محمد بن علي وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالحميمة سنة ١٠١ هـ ، ولما انتقل أبو العباس من الحميمة إلى الكوفة كان فيمن معه. ولما أفضت الخلافة إلى أبي العباس كان عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الخلافة وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس١٣٦ هـ عقد العهد لأخيه أبي جعفر وكان إذا ذاك أميراً على الحج ثم توفي السفاح وأبو جعفر بالحجاز فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقيه ا لرسول بأحد المنازل عائداً بعد انتهاء الحج. وقد تمت البيعة له في اليوم الذي توفي فيه أخوه واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة١٥٨ هـ (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥م فكانت خلافته ٢٢ سنة هلالية إلا ستة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨-١٧٢ هـ) .

الأحوال زمن المنصور:

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها ولم يكن يخشى عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين لأنه لم تبق لهم بقية يخاف منها وإنما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات:

الأولى: منافسة عمه عبد اللّه بن علي في الأمر لما كان له من نباهة الذكر في بني العباس ولأنه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل الذي أمره عليهم السفاح قبل وفاته ليغزوا بهم الروم وقد أظهر المنصور خوفه هذا لأبي مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له.

الثانية: من عظمة أبي مسلم الخراساني مؤسس الدولة فإنه كان يرى له من الصولة وشدة التمكن في حياة أخيه ما لم يكن يرى معه أمراً ولا حكماً

ومثل المنصور في علو نفسه لا يرضيه أن يكون له في الأمــر شــريك ذو سطوة وسلطان مثل أبي مسلم على أن هناك أمراً آخر ربمــا كــان يـدور بخاطره وهو أن يستقل أبو مسلم بأمر خراسان ويخلع المنصور ثــم يختــار للخلافة رجلاً آخر يكون تحت تصرفه وسلطانه فيعود الأمر لأهل فارس.

الثالثة: وهي أقوى هذه الجهات الثلاث خوفه من بني عمه آل علي بن أبي طا لب الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان مكين وأخصهم محمد بن عبد الله بن حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب لما سـيأتي بيانــه فكان المنصور يتخوف أن يخرج عليه طالباً بالخلافــة والــذي كــان يزيـد هواجسه أنه حين حج في حياة أخيه لم يحضر محمد ولا أخوه إبــراهيم ابنــا عبد الله مع من شهده من سائر بني هاشم.

صار المنصور يحتال بأنواع الحيل ليعــرف الأخبــار عــن محمــد واستخراج ما عند أبيه عبد الله ابن حسن من أخباره ولما علم أن عبد اللــه يعرف نية ابنه حج سنة فسأله عنه وأخيه فأنكر مكانهما، فتيقن المنصور كذبه وحبسه وصادر أمواله.

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر سنة فلما لم يجد عندهم ما يبرد غلته من جهة محمد وأخيه إبراهيم أمر بحملهم إلى العراق وأشخص معهم محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخو بني حسن بن زيد بن حسن لأمهم وأمهم جميعاً فاطمة بنت حســين بــن علي وكان إبراهيم بن عبد الله صهره على ابنته فحملوا مقيــدين بــالأغلال والأثقال وسير بهم على شر ما يكون حتى أتى بهم العراق فحبسوا بقصر ابن هبيرة وهو بلد شرقي الكوفة مما يلي بغداد على نهر الفرات. وقــد اســتعمل معهم المنصور من الفظائع ما لا طاقة للإنسان على تسطيره وكان أعظم فظا ئعه مع محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وكانت نتيجة هــذا الحــبس الشديد أن مات أكثرهم في الحبس مع أن بني العباس مــلأوا الــدنيا تهــويلاً

وربما بأنهم خرجوا انتقاماً من قتلة الحسين بن علي وزيد بن حسن و يحيى بن زيد وهؤلاء إنما قتلوا في ميادين القتال وهم خارجون ولم يقتل بنو أمية أحداً من آل علي بالشكل الذي ذهب به بنو حسن في عهد بني عمهم من آل العباس.

الأحوال الخارجية:

في عهد المنصور هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الأندلس وأسس بها الدولة الأموية الثانية وكان المنصور يعجب به وبقدرته وعزيمته التي جعلته وهو شريد طريد يؤسس ملكاً في هذه البلدان القاصية ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة ولم يتسم عبد الرحمن بأمير المؤمنين بل تسمى بالأمير فقط. وهذه أول بلاد اقتطعت من الخلافة الإسلامية الكبرى بالمشرق أما مملكة الروم التي كانت تحاد الخلافة الإسلامية من الشمال فكان يعاصر المنصور فيها قسطنطين الخامس كما قدمنا وكانت العلاقة بين الأمتين منقطعة لا تترك إحداهما قتال الأخرى متى عنت الفرصة وكان من النظام المتبع في الخلافة إرسال الجيوش تغزو الروم في الصيف وتسمى بالصوائف ولم يكن ذلك ينقطع إلا لمانع.

وأول ما حدث من الروم في عهد المنصور أنهم أغاروا بقيادة ملكهم سنة ١٣٨ هـ على ملطية وكانت إذ ذاك من الثغور الإسلامية فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها ولكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية.

ولما علم بذلك المنصور أغزى الصائفة عمه صالح بن علي ومعه أخوه العباس بن محمد بن علي فبنى ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية وأقام في استتمام ذلك إلى سنة ١٣٩ هـ. ثم اتجهوا إلى درب الحدث فدخلوا في أرض الروم وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة ابنتا علي وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله- وغزا من درب

ملطية جعفر بن حنظلة البهراني. وفي هذه السنة استقر الأمر بين المنصور وملك الروم على المفاداة فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين.

وفي سنة ١٤٠ هـ غزا الصائفة الحسن بن قحطبة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام وأقبل قسطنطين صاحب الروم في جيش كثيف فنزل جيحان فبلغه كثرة المسلمين فأحجم عنهم ثم لم تكن صائفة بعد ذلك إلى سنة ١٤٦ هـ لاشتغال أبي جعفر بأمر محمد وإبراهيم ابني عبد الله. ولم تزل الصوائف بعد ذلك تتوالى إلى سنة ١٥٥ هـ وفيها طلب صاحب الروم الصلح على أن يؤدي للمسلمين الجزية. وكانت هذه الحروب بين الطرفين إغارات لم يقصد بها فتح بل كل واحد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التي لصاحبه ثم يعود إلى مقره ثانية ولم تكن المصالحات يطول زمنها بل سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه.

أما حدود المملكة من الجهات الأخرى فكانت في الغالب محلاً للاضطرابات ولكنها كانت تسكن حالاً بما يبذله المنصور من الهمة في إرسال الجنود إليها ليقظته ومعرفته بالأمور على وجهها، وكان في كل ثغر جنود مرابطون من المرتزقة وهم المفروض لهم عطاء في الديوان ومن المتطوعة وهم الذين ينتدبون للجهاد في سبيل الله لا يطلبون على ذلك أجراً إلا من الله وكان الخليفة هو الذي يعين قائدهم وكان عددهم في ذلك الوقت كثيراً.

صفات المنصور وأخلاقه:

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة وبأساً ويقظة وثباتاً ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترتسم صورة هذا الرجل العظيم في الأذهان.

وفاة المنصور

في سنة ١٥٨ هـ ذهب المنصور لتأدية فريضة الحج فتوجه من مدينة السلام إلى مكة في شوال فلما صار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذي

توفي به ولم يزل يزداد حتى وصل بستان ابن عامر فاشتد به وجعه ثم صار إلى بئر ميمون وهو يسأل عن دخول الحرم ويوصي الربيع بما يريد وتوفي في سحر ليلة السبت٦ ذي الحجة سنة١٥٨ هـ ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم لأمير المؤمنين المهدي ولعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا وتوجه العباس بن محمد بن علي ومحمد بن سليمان بن علي إلى مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدي بين الركن والمقام.

ثم أخذ في تجهيز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل رأسه مكشوفاً من أجل أنه مات محرماً وصلى عليه عيسى بن موسى ودفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها٢٢ سنة إلا ستة أيام رحمه اللّه.

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت. فالذكور محمد المهدي وجعفر الأكبر وأمهما أروى بنت منصور الحميرية وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد اللّه وجعفر الأصغر وأمه أم ولد كردية. وصالح المسكين وأمه أم ولد رومية. والقاسم وأمه أم ولد وقد مات منهم جعفر الأكبر والقاسم قبل وفاة المنصور والبنت اسمها العالية وأمها امرأة من بني أمية وقد تزوج العالية إسحق بن سليمان بن علي.

المهدي (١٥٨ -١٦٩هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن عبدالله المنصور بن محمد بن علي المهدي بالله. هو ثالث خلفاء الدولة العباسية بالعراق. ولد بإيذج من كور الأحواز سنة ١٢٧ هـ. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه أبي جعفر المنصور عام ١٥٨ هـ.

كان المهدي جواداً شهما فطنا مليح الشكل محبباً إلى الرعية حسن الاعتقاد تتبع الزنادقة وأفنى منهم خلقاً كثيراً وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين روي الحديث عن أبيه وعن مبارك بن فضالة حدث عنه يحيى بن حمزة وجعفر بن سليمان الضبعي ومحمد بن عبد الله الرقاشي وأبو سفيان سعيد بن يحيى الحميري قال الذهبي وما علمت قيل فيه جرحاً ولا تعديلا.

ولما شب المهدي أمره أبوه على طبرستان وما والاها وتأدب وجالس العلماء وتميز ثم إن أباه عهد إليه فلما مات بويع بالخلافة ووصل الخبر إليه ببغداد فخطب الناس فقال: إن أمير المؤمنين عبد دعي فأجاب وأمر فأطاع واغرورقت عيناه فقال قد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فراق الأحبة ولقد فارقت عظيماً وقلدت جسيماً فعند الله أحتسب أمير المؤمنين وبه أستعين على خلافة المسلمين أيها الناس أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية وتحمدوا العاقبة واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم وطوى الإصر عنكم وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدما ذلك والله لأفنين عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم.

قال نفطويه: لما حصلت الخزائن في يد المهدي أخذ في رد المظـالم، فأخرج أكثر الذخائر ففرقها وبر أهله ومواليه.

وقال غيره: أول من هنأ المهدي بالخلافة وعزاه بأبيـه أبـو دلامـة فقال:

عيناي واحدة ترى مـسـرورة ... بأميرها جذلى وأخرى تذرف

تبكي وتضحك تارة ويسوؤهـا ... ما أنكرت ويسرها ما تعـرف

فيسوءها موت الخليفة محرمـاً ... ويسرها أن قام هـذا الأرأف

ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى ... شعراً أسرحه وآخر ينـتـف

هلك الخليفة يا لدين مـحـمـد ... وأتاكم من بعد مـن يخـلـف

أهدى لهذا الله فضـل خـلافة ... ولذاك جنات النعيم تزخـرف

وفي سنة تسع وخمسين ومائة بايع المهدي بولايـة العهـد لموسـى الهادي ثم من بعده لهارون الرشيد ولديه.

وفي سنة ستين ومائة فتحت أربد من الهند عنوة وفيها حج المهـدي فأنهى إليه حجبة الكعبة أنهم يخافون هدمها لكثرة ما عليها من الأستار فأمر بها فجردت واقتصر على كسوة المهدي وحمل إلى المهدي الثلج إلى مكـة قال الذهبي لم يتهيأ ذلك لملك قط.

وفي سنة إحدى وستين ومائة أمر المهدي بعمارة طريق مكة وبنـى بها قصوراً وعمل البرك وأمر بترك المقاصير التي في جوامـع الإسـلام وقصر المنابر وصيرها على مقدار منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي سنة ثلاث وستين وما بعدها كثرت الفتوح بالروم.

وفي سنة ست وستين ومائة تحول المهدي إلى قصره المسمى بعيساباذ وأمر فأقيم له البريد من المدينة النبوية ومن اليمن ومكة إلى الحضرة بغالا وإبلا قال الذهبي: وهو أول من عمل البريد من الحجاز إلى العراق.

وفيها وفيما بعدها جد المهدي في تتبع الزنادقة وإبادتهم والبحث عنهم في الآفاق والقتل على التهمة.

وفي سنة سبع وستين ومائة أمر بالزيادة الكبرى في المسجد الحرام وأدخل في ذلك دوراً كثيرة.

ومن أخبار المهدي قال الصولي لما عقد المهدي العهد لولده موسى قال مروان بن أبي حفصة:

عقدت لموسى بالرصافة بيعة	شد الإله بها عرى الإسلام
موسى الذي عرفت قريش فضله	ولها فضيلتها على الأقوام
بمحمد بعد النبي محمد	حيي الحلال ومات كل حرام
مهدي أمته الذي أمست به	للذل آمنه وللإعدام
موسى ولي عهد الخلافة بعده	جفت بذاك مواقع الأقلام

وقال آخر:

يا بن الخليفة إن أمة أحمد	تاقت إليك بطاعة أهواؤها
ولتملأن الأرض عدلا كالذي	كانت تحدث أمة علماؤها
حتى تمنى لو ترى أمواتها	من عدل حكمك ما ترى أحياؤها
فعلى أبيك اليوم بهجة ملكها	وغدا عليك إزارها ورداؤها

وأسند الصولي أن امرأة اعترضت المهدي فقال يا عصبة رسول الله , صلى الله عليه وسلم انظر في حاجتي فقال المهدي: ما سمعتها من أحد قط أقضوا حاجتها وأعطوها عشرة آلاف درهم.

وأخرج البغوي في الجعديات عن حمدان الأصبهاني قال كنت عند شريك فأتاه ابن المهدي فاستند وسأل عن حديث فلم يلتفت شريك ثم أعاد فعاد فقال كأنك تستخف بأولاد الخلفاء قال لا ولكن العلم أزيد عند أهله من أن يضيعوه فجثا على ركبتيه ثم سأله فقال شريك هكذا يطلب العلم .

ومن شعر المهدي ما أنشده الصولي:

ما يكف الناس عنا	ما يمل الناس منا
إنما همتهم أن	ينبشوا ما قد دفنا
لو سكنا بطن أرض	فلكانوا حيث كنا
وهم إن كاشفونا	في الهوى يوماً مجنا

وأسند عن أبي عبيدة قال كان المهدي يصلي بنا الصلوات الخمس في المسجد الجامع بالبصرة لما قدمها فأقيمت الصلاة يوماً فقال أعرابي لست على طهر وقد رغبت في الصلاة خلفك فأمر هؤلاء بانتظاري فقال: انتظروه ودخل المحراب فوقف إلى أن قيل قد جاء الرجل فكبر فعجب الناس من سماحة أخلاقه.

وأسند عن إبراهيم بن نافع أن قوماً من أهل البصرة تنازعوا إليه في نهر من أنهار البصرة فقال: إن الأرض لله في أيدينا للمسلمين فما لم يقع له ابتياع منها يعود ثمنه على كافتهم وفي مصلحتهم فلا سبيل لأحد عليه فقال

القوم: هذا النهر لنا بحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه قال: "من أحيا أرضاً ميتة فهي له" وهذه موات فوثب المهدي عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حتى ألصق خده بالتراب وقال: سمعت لما قال وأطعت ثم عاد وقال بقي أن تكون هذه الأرض مواتاً حتى لا أعرض فيها وكيف تكون مواتاً والماء المحيط بها من جوانبها فإن أقاموا البينة على هذا سلمت.

وأسند عن الأصمعي قال: سمعت المهدي على منبر البصرة يقول إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته فقال "إن الله وملائكته يصلون على النبي" الآية "الأحزاب ٥٦" آثره بها من بين الرسل إذ خصكم بها من بين الأمم.

قلت: وهو أول من قال ذلك في الخطبة وقد استسنها الخطباء إلى اليوم.

ولما مات قال أبو العتاهية وقد علقت المسوح على قباب حرمه:

رحن في الموشي وأصبحن	عليهم المسوح
كل نطاح من الدهر	له يوم نطوح
لست بالباقي ولو عم	رت ما عمر نوح
نح على نفسك يا م	سكين إن كنت تنوح

مات في أيام المهدي من الأعلام شعبة وابن أبي ذئب وسفيان الثوري وإبراهيم بن ادهم الزاهد وداود الطائي الزاهد وبشار بن برد أول شعراء المحدثين وحماد بن سلمة وإبراهيم بن طهمان والخليل بن أحمد صاحب العروض.

كان المهدي محمود السيرة محببا إلى الرعية، حسن الخلـق والخُلـق، جوادا، وكان يجلس للمظالم ، وفى عهده فتحت الهند وكثرت الفتوح بالروم كما بنى جامع الرصافة. استمر انتعاش بغداد في وقته وازدادت شهرتها واستقطبت المزيد من المهاجرين إليها من شتى الأعراق والأديان حتى يقال أنهـا كانـت أكثر مدن العالم سكانا في ذاك الوقت وازداد نفوذ البرامكة في عصـره، قـال عنه الذهبي: «هو أول من عمل البريد من الحجاز إلى العـراق».وقـد جـد المهدي في تتبع الزنادقة وإبادتهم والبحث عنهم في الآفاق والقتل على التهمة. توفي المهدى سنة ١٦٩ هـ. وكانت مدة خلافته عشر سنين وشهرا.

كان للمهدي جارية شغف بها وهي كذلك إلا أنها تتحاماه كثيراً فـدس إليها من عرف ما في نفسها فقالت أخاف أن يملني ويـدعني فـأموت فقـال المهدي في ذلك:

ظفرت بالقلب مني غادة مثل الهـلال --- كلما صح لـهـا ودي جاءت باعتـلال

لا لحب الهجر مني والتنائي عن وصال --- بل لإبقاء على حبي لها خوف الملال

كان المهدي أول من أمر بتصنيف الكتب في الرد على المخالفين.

أبو محمد موسى الهادي

أبو محمد موسى الهادي بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور من خلفاء الدولة العباسية ببغداد. ولد الهادى بالري سنة ١٤٤ هـ. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٦٩ هـ. اتبع وصية أبيه أن يقوم بقتل الزنادقة فتتبعهم وقتل منهم خلقا كثيرا.

كان الهادي أكبر أخوته، كان الهادي أديبا فصيحا، تعلوه الهيبة، وله سطوة وشهامة، وكان نقش خاتمه الله ثقة موسى وبه يؤمن وقد اشتهر بكرمه وجزيل عطائه. قامت في عصر الهادي العديد من الثورات والصراعات الحربية الداخلية والخارجية، كان من بينها ثورة الحسين بن علي بن الحسن الذي أعلن نفسه خليفة في المدينة فتم قمع هذه الثورة والقضاء على الحسين ورجاله، إلا أن ابن عم الحسين بن علي نجا من القتل وهرب للمغرب، وأسس هناك نواة الدولة الأدارسة.

يرى بعض المؤرخين أن وفاة الهادي كانت وفاة طبيعية، بينما يرى البعض أنه اغتيل من قبل الخيزران أم هارون الرشيد التي أمرت جواريها أن يقتلنه فخنقنه، ويعتقد أن سبب الاغتيال هي رغبة الهادي خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد، وجعلها لابنه جعفر. توفي الهادي عام ١٧٠ هـ.

خلافة هارون الرشيد: (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٨ - ٨١٠م)

هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس و يلقب بهارون الرشيد ، تولى الخلافة سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م وهو الخليفة العباسي الخامس ،وهو أشهر الخلفاء العباسيين، ووالدته الخيزران بنت عطاء . هو أكثر من تعرض تاريخه للتشويه والتزوير من خلفاء الإسلام، مع أنه كان من أكثر خلفاء الدولة العباسية جهادا وغزوا واهتماما بالعلم والعلماء، و بالرغم من هذا أشاعوا عنه الأكاذيب وأنه لاهم له سوى الجواري والخمر والسكر، ونسجوا في ذلك القصص الخرافية ومن هنا كان إنصاف هذا الخليفة واجبا على كل مؤرخ مسلم. وكتب التاريخ مليئة بمواقف رائعة للرشيد في نصرة الحق وحب النصيحة وتقريب العلماء لا ينكرها إلا جاحد أو مزور، ويكفيه أنه عرف بالخليفة الذي يحج عاما ويغزو عاما.

ولد هارون في سنة ١٤٨ هـ ، كان مولده بالري حين كان أبوه أميرا عليها وعلى خراسان. نشأ الرشيد في بيت ملك، وأعد ليتولى المناصب القيادية في الخلافة، وعهد به أبوه الخليفة أبو عبد الله محمد المهدي إلى من يقوم على أمره تهذيبًا وتعليمًا وتثقيفًا، حتى إذا اشتد عوده واستقام أمره، ألقى به أبوه في ميادين الجهاد، وجعل حوله القادة الأكفاء، يتأسى بهم، ويتعلم من تجاربهم وخبراتهم، فخرج في عام (١٦٥ هـ= ٧٨١م) على رأس حملة عسكرية ضد الروم، وعاد محملاً بأكاليل النصر، فكوفئ على ذلك بأن اختاره أبوه وليًا ثانيًا للعهد بعد أخيه أبو محمد موسى الهادي

توليه الخلافة

تمت البيعة للرشيد بالخلافة في (١٤ من شهر ربيع الأول ١٧٠هـ= ١٤ من سبتمبر ٧٨٦م)، بعد وفاة أخيه موسى الهادي،وكانت الدولة العباسية حين آلت خلافتها إليه مترامية الأطراف كثيرا تمتد من وسط أسيا حتى المحيط الأطلنطي، معرضة لظهور الفتن والثورات، تحتاج إلى قيادة حكيمة وحازمة

يفرض سلطانها الأمن والسلام، وتنهض سياستها بالبلاد، وكان الرشيد أهلاً لهذه المهمة الصعبة في وقت كانت فيه وسائل الإتصال شاقة، ومتابعة الأمور مجهدة.

أعماله:

بتولي الرشيد الحكم بدأ عصر زاهر كان واسطة العقد في تاريخ الدولة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون، ارتقت فيه العلوم، وسمت الفنون والآداب، وعمّ الرخاء ربوع الدولةالإسلامية. ويزداد إعجابك بالرشيد حين تعلم أنه أمسك بزمام هذه الدولة وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره، فأخذ بيدها إلى ما أبهر الناس من مجدها وقوتها وازدهار حضارتها. كما جعل الرشيد الرقة عاصمة له بين عامي ٧٩٦ و٨٠٨ م. وأنشأ بمايعرف ببيت الحكمة وزودها بأعداد كبيرة من الكتب والمؤلفات من مختلف بقاع الأرض. وكانت تضم غرفًا عديدة تمتد بينها أروقة طويلة، وخُصصت بعضها للكتب، وبعضها للمحاضرات، وبعضها الآخر للناسخين والمترجمين والمجلدين. وغدت بغداد قبلة طلاب العلم من جميع البلاد، يرحلون إليها حيث كبار الفقهاء والمحدثين والقراء واللغويين، وكانت المساجد الجامعة تحتضن دروسهم وحلقاتهم العلمية التي كان كثير منها أشبه بالمدارس العليا، من حيث غزارة العلم، ودقة التخصص، وحرية الرأى والمناقشة، وثراء الجدل والحوار. كما جذبت المدينة الأطباء والمهندسين وسائر الصناع. وكان الرشيد نفسه يميل إلى أهل الأدب والفقه والعلم، حتى ذاع صيت الرشيد وطبق الآفاق ذكره، وأرسلت بلاد الهند والصين وأوروبا رسلها إلى بلاطه تخطب وده، وتطلب صداقته.

لقد سار الرشيد في إدارته على نهج قويم، وأعاد إلى الخلافة مجدها الذى كان لها على عهد جده المنصور، وما كان مسرفًا ولا بخيلا، وسمى الناس أيامه "أيام العروس" لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها، وكانت دولته من أحسن الدول وأكثرها وقارًا ورونقًا وأوسعها مملكة، واتسعت الدولة الإسلامية

في عهد الرشيد، وجاءه الخير من كل مكان، وعين الرشيد يحيى بن خالد البرمكي، وجعله كبير وزرائه، وقال له: قد قلدتك أمر الدولة، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى. وسلّم إليه خاتم الخلافة.

إدارة حكيمة:

أما الولايات فقد فوضها إلى أمراء جعل لهم الولاية على جميع أهلها ينظرون في تدبير الجيوش والأحكام، يعينون القضاة والحكام، ويجبُّون الخراج ويقبضون الصدقات، ويقلدون العمال فيها، ويحمون الدين، ويقيمون حدوده ويؤمُّون الناس في صلاة الجمعة، الصلوات الأخرى أو يستخلفون عليها، فإذ كانت أقاليمهم ثغرًا متاخمًا للعدو تولوا جهاده وما قسمت أعمال الدولة منذ انتقالها إلى بني العباس تقسيمها في زمن الرشيد ولذلك كان للخليفة وقت ليحج، ووقت ليغزو، ووقت ليصطاف في الرقة ويترك قصر الخلد في بغداد.

لقد كان الرشيد على أشد ما يكون من الانتباه لكل ما صغر وكبر من شئون المُلك، ومن أشد الملوك بحثًا عن أسرار رعيته، وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمرًا؛ لذلك فما اشتعلت فتنة في أرجاء دولته إلا أطفأها.

وألغى الرشيد العُشْر الذي كان يؤخذ من الفلاحين والمزارعين بعد النصف، وكان رحمه الله يسدُّ كل خللٍ في مملكته، ويهتمُّ كل الاهتمام بما يخفف عن الفلاحين.

وقد ولّى الرشيد رجلا بعض أعمال الخراج، فدخل عليه يودعه، وعند يحيى بن خالد البرمكي، وابنه جعفر، فقال الرشيد ليحيى وجعفر: أوصياه. فقال له يحيى: وفّر وعَمِّر. وقال له جعفر: أنصف وانتصف. فقال له الرشيد: اعدل وأحْسِن.

وكتب الرشيد إلى أحد عماله: أجرِ أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينـــا، واعلم أنها مدة تنتهي، وأيام تنقضى، فإما ذكر جميل، وإما خزى طويل. ومما يعد جديدًا فى تعظيم الحكم أن قاضى الرشيد "أبا يوسف" صاحب أبى حنيفـــة وتلميذه كان أول من دُعى فى الإسلام قاضى القضاة (وزيـــر العـــدل الآن)، وكان الرشيد لا يبخل بالمال فى سبيل الدولة، وقد خلف من المال -على كثرة بذله- مالم يخلف أحد مثله منذ كانت الخلافة.

قال ابن الأثير: كان الرشيد يطلب العمل بآثار المنصور إلا فـــى بـــذل المال، فإنه لم يُر خليفة قبله كان أعطى منه للمال، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر عنده.

سياسة رشيدة:

وكذلك كان الرشيد حكيمًا فى سياسته كما كان حكيمًا فى إدارته، لقـــد بويع للرشيد عند موت أخيه الهادى، وكان أبوهما قد عقد لهما بولايـــة العهـــد معًا، ويروى أن الهادى قد حدثته نفسه بخلع الرشيد، وجمع الناس على تقليـــد ابنه العهد بعده، فأجابوه، وأحضر "هرثمة بن أعين"، فقيل له: تبايع يا هرثمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، يمينى مشغولة ببيعتك، ويسارى مشغولة ببيعة أخيـــك، فبأى يد أبايع؟

فقال الهادى لجماعة الحاضرين: شاهت وجوهكم، والله لقـــد صـــدقنى مولاى، وكذبتمونى، ونصحنى فغششتمونى، وسلم إلى الرشيد بحقه فى الولاية بعده.

وكانت سياسة الرشيد سياسة رشيدة فى الداخل والخارج، غزا الـــروم حتى وصل إلى "إسكدار" من ضواحى "القسطنطينية" أيام ولايته العهد، وتغلغل مرة ثانية فى بلادهم وغزاهم فى خلافته بضع غزوات، وأخذ منهم "هرقليـــة"،

ويبعث إليه ملكهم بالجزية عن شعبه، واشترط عليه الرشيد ألا يعمر هرقلية، وأن يحمل إليه في السنة ثلاثمائة ألف دينار.

العصر الذهبي:

وكان "نقفور" قد نقض العهد الذي أمضته الملكة "إيريني"، التي كانت تحكم الروم قبله، وأرسل إلى هارون الرشيد رسالة يهدده فيها: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب: أما بعد؛ فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ (طائر خرافي يعرف بالقوة)، وأقامت نفسها مقام البيدق (يعني مقام الضعيف)، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أضعافه إليها، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا، فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك".

فلما قرأ الرشيد الرسالة غضب غضبًا شديدًا حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه، فدعا بدواة وكتب إلى نقفور ملك الروم ردًا على رسالته يقول:

"بسم الله الرحمن الرحيم: من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام".

وقاد بنفسه جيوشًا جرارة، ولقنه درسًا لا ينسى، فعاد إلى أداء الجزية صاغرًا، بعد أن خضع أمام قوة المسلمين وعزة نفوسهم.

وجاء في فتوح البلدان للبلاذري: "وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون في الغزو، ونفاذ بصيرته في الجهاد أمرًا عظيمًا، وأقام من الصناعة (الأسطول) مالم يقم قبله، وقسم الأموال في الثغور والسواحل، وهزم الروم وقمعهم".

وسمي الرشيد "جبار بني العباس"؛ لأنه أخرج ابنه القاسم للغزو سنة ١٨١هـ فهزم الروم هزيمة منكرة أشاعت الرعب في قلوبهم فصالحه الروم على أن يرحل عنهم في مقابل أن يعيدوا إليه كل من أسروهم من المسلمين قبل

ذلـــك، وكـــان هـــذا أول فـــداء فـــي الإســـلام بـــين المســـلمين والـــروم. وأرسل "علي بن عيسى بن ماهان" لغزو بلاد الترك، ففعل بهم مثلما فعل القاسم بن الرشيد بالروم، وسبى عشرة آلاف، وأسر ملكيْن منهم. ثم غزا الرشيد نفسه الروم وافتتح هرقلية، وأخذ الجزية من ملك الروم.

وتوطدت الصّلات بينه وبين "شارلمان" ملك فرنسا وجرمانيا وإيطاليـــا وتبادلا السفراء، والهدايا.

وفي أيامه، خرج "الوليد بن طريف الحروري" مـــن رءوس الخـــوارج سنة ١٧٨هـــ/ ٧٩٥م، فقُتِل بعد أن استفحل أمره.

لقد كان عصر الرشيد وابنه المأمون أرقى عصور بني العبـــاس قـــوة وعظمة وثقافة، وهو العصر الذهبي للدولة العباسية.

الرشيد والبرامكة

أحاط الرشيد نفسه بكبار القادة والرجال مـــن ذوي القـــدرة والكفـــاءة وخاصةً من البرامكة أمثال يحيى بن خالد البرمكي حتى حدث نزاع بين الخليفة الرشيد والبرامكة ونتج عن ذلك أن الرشيد حبس البرامكة وعلى رأسهم كبيرهم وأميرهم يحي بن خالد البرمكي.

وقد تحدثت الدنيا عن نكبة "البرامكة" الذين كان منهم وزيـــر الرشـــيد، وكانت لهم الكلمة العليا في البلاد على يديه ســـنة ١٨٧هـــــ/ ٨٠٣م، بعـــدما ظهروا ظهورًا غطى أو قارب أن يغطي على سلطة الرشيد ومكانتـــه، وهـــو الخليفة.

لقد أصبحوا مركزًا من مراكز القوى في الدولة العباسية، الأمر أمرهم، والكلمة كلمتهم، والأموال في أيديهم، فما منعهم ذلك لأن يفسد حالهم، ويســـوء سلوك أكثرهم، حتى إن الرشيد كان لا يمر ببلد أو إقليم أو مزرعة أو بستان إلا قيل: هذا لجعفر بن يحيى بن خالد البرمكي. كما قلدوه فـــي إنفـــاق الأمـــوال

والعطايا والمنح. وضاق الرشيد بالبرامكة، وعزم علـى أن يقضـى علـيهم؛ وتكون نكبتهم على يديه، ونودى فى بغداد: لا أمان للبرامكة إلا محمد بن خالد بـن برمـك ولـده؛ لإخلاصـهما للخليفـة.

وكان منهم الوزراء والقادة وأصحاب الرأى، وكانوا من أصل فارسـى، فلمـا حدث منهم ما حدث، امتنع الرشيد عن الوثوق بهم، واختار وزراءه ومستشاريه من العرب، وجعل الفضل بن الربيع الذى كان أبوه حاجبًا للمنصور والمهـدى والهادى وزيرًا له.

وكان الفضل بن الربيع شهمًا خبيرًا بأحوال الملوك وآدابهم، فلما ولـى الوزارة جمع إليه أهل العلم والأدب. وما زال الفضل ابن الربيع على وزارته حتى مات الرشيد سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م.

العامة وهارون الرشيد:

وقبل أن ننتقل بحديثنا عن هارون الرشيد إلـى غيـره مـن الخلفـاء العباسيين، تبقى كلمة لابد من قولها: فقد ارتبط اسم هارون الرشيد فى أذهـان العامة بحكايات ألف ليلة وليلة، باللهو والمجون، وما كانت هذه حقيقة الرجـل من قريب أو بعيد، وإنما عمد المستشرقون والمستهترون إلى تشـويه صـورة الرجل، لكى تبدو صورة الخلافة الإسلامية مشوهة، وأن المسلمين قوم لاهَـمَّ لهم إلا إشباع غرائزهم، لا يصلحون لقيادة الأمم وعمارة الأرض.

أما حقيقة هارون الرشيد، الذى أعز الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به أعداء الدين، فهو مسلم حق، وعابد، ومجاهد بنفسه وماله فى سبيل عزة هـذا الدين وإعلاء كلمة الله فى أرضه.

كان الرشيد يكثر من صلاة النافلة إلى أن فارق الدنيا، وكان يتصـدق وينفق على الحجيج من صلب ماله؛ وكان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلـى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء فى الدين، ويسرع الرجوع إلى رحاب الحـق

إذا ذكر. حدث أنه حبس أبا العتاهية الشاعر، ووكَّل به رجلا يكون قريبًا منه لينظر ما يقول ويصنع، فكتب أبو العتاهية على الحائط:

أما والله إن الظلم لؤم وما زال المسيء هو الظلوم إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم فجاء الرجل فأخبر هارون الرشيد، فبكى الرشيد، وأطلق أبا العتاهية واعتذر إليه واسترضاه.

وحج ذات مرة، فرآه الناس وقد تعلق بأستار الكعبة يقول: "يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، صلّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا؛ يا من لا تضره الذنوب، ولا تخفى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا، صلّ على محمد وعلى آل محمد، وخِره لي في جميع أموري. يامن خشعت له الأصوات بأنواع اللغات، يسألونه الحاجات، إن من حاجتي إليك أن تغفر لي ذنوبي إذا توفيتني، وصُيِّرت في لحدي، وتفرق عني أهلي وولوا؛ اللهم لك الحمد حمدًا يفضل كل حمد، كفضلك على جميع الخلق؛ اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون له رضا، وصلّ عليه صلاة تكون له ذخرًا، واجزه عنا الجزاء الأوفى. اللهم أحينا سعداء، وتوفنا شهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء مرجومين".
هذا هو هارون الرشيد، الصورة المضيئة لخليفة المسلمين. والمسلم المحتذى به في الأمور.

الرشيد محارباً

كانت شهرة هارون الرشيد قبل الخلافة تعود إلى حروبه ضد الروم، فلما ولي الخلافة استمرت الحروب بينهما، وأصبحت تقوم كل عام تقريبا .واضطرت دولة الروم أمام ضربات الرشيد المتلاحقة إلى طلب الهدنة والمصالحة، فعقدت إيريني ملكة الروم صلحًا مع الرشيد، مقابل دفع الجزية السنوية له في سنة ١٨١هـ، وظلت المعاهدة سارية حتى نقضها إمبراطور الروم، الذي خلف إيريني في سنة ١٨٦هـ ، وكتب إلى [illegible]: "من نقفور

ملك الروم إلى ملك العرب، أما بعد فإن الملكة إيريني التي كانت قبلي أقامتك مقام الأخ، فحملت إليك من أموالها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك، وإلا فالحرب بيننا وبينك".

فلما قرأ هارون هذه الرسالة ثارت ثائرته، وغضب غضبًا شديدًا، وكتب على ظهر رسالة الإمبراطور: "من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، ، الجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام".

وخرج هارون بنفسه في ١٨٣ هـ، حتى وصل هرقلة واضطر نقفور إلى الصلح والموادعة، وحمل مال الجزية إلى الرشيد كما كانت تفعل إيريني من قبل، ولكنه نقض المعاهدة بعد عودة الرشيد، فعاد الرشيد إلى قتاله في عام ١٨٨هـ وهزمه هزيمة منكرة، وقتل من جيشه أربعين ألفا، وجُرح نقفور نفسه.

وفاة الرشيد

كان الرشيد على غير ما تصوره بعض كتب الأدب، دينا محافظًا على تكاليف الإسلام، وصفه مؤرخوه أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، وينفق على الفقراء من ماله الخاص، ولا يتخلف عن الحج إلا إذا كان مشغولاً بالغزو والجهاد، وكان إذا حج صحبه الفقهاء والمحدثون.

وظل عهده مزاوجة بين جهاد وحج، حتى إذا جاء عام ١٩٢ هـ فخرج إلى خرسان لإخماد بعض الفتن والثورات التي اشتعلت ضد الدولة، فلما بلغ مدينة طوس اشتدت به العلة، وتُوفي في ٣ من جمادى الآخر ١٩٣هـ ٤ من إبريل ٨٠٩م بعد أن قضى في الخلافة أكثر من ثلاث وعشرين سنة، عدت العصر الذهبي للدولة العباسية. يقال انة قد بنى قبرة قبل موتة بفترة وكان يدوم

على زيارة هذا القبر وكان يدعو الله ويبكي ويقول يا من لا يزول ملكك ارحم من زال ملكه.

وولى عهده من بعده لابنه الأمين ومن بعده اخيه المأمون فلمـــا تـــوفى تولى الخلافة الأمين .

الأمين

أبو عبد الله محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (١٩٣ -١٩٨هـ)

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد و أمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمي أبا و أما، و لم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، و لابنه الحسن .

كان الأمين ولي عهد أبيه فولي الخلافة بعده وكان من أحسن الشباب صورة أبيض طويلا جميلا ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة ومعرفة يقال إنه قتل مرة أسداً بيده وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة .

قال الصولي: ولا نعرف للأمين رواية في الحديث إلا هذا الحديث الواحد حدثنا المغيرة بن محمد المهلبي قال رأيت عند الحسين بن الضحاك جماعة من بني هاشم فيهم بعض أولاد المتوكل فسألوه عن الأمين وأدبه فوصف الحسين أدباً كثيراً قيل: فالفقه قال: كان المأمون أفقه منه قيل فالحديث قال ما سمعت منه حديثاً إلا مرة فإنه نعي إليه غلام له مات بمكة فقال: حدثني أبي عن أبيه عن المنصور عن أبيه عن علي بن عبد الله عن ابن عباس عن أبيه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول "من مات محرماً حشر ملبياً".

قال الثعالبي في لطائف المعارف: كان أبو العيناء يقول لو نشرت زبيدة ضفائرها ما تعلقت إلا بخليفة أو ولي عهد فإن المنصور جدها والسفاح أخو جدها والمهدي عمها والرشيد زوجها والأمين ابنها والمأمون والمعتصم ابنا زوجها والواثق والمتوكل ابنا ابن زوجها وأما ولاة العهود فكثيرة ونظيرتها من بني أمية عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، يزيد أبوها ومعاوية جدها ومعاوية بن يزيد أخوها ومروان بن الحكم حموها وعبد الملك زوجها ويزيد ابنها والوليد

بن يزيد ابن ابنها والوليد وهشام وسليمان بنو زوجها ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد بن عبد الملك ابنا ابن زوجها.

مات في أيامه من الأعلام إسماعيل بن علية وغندر وشـقيق البلخـي الزاهد وأبو معاوية الضرير ومؤرج السدوسي وعبد الله بن كثير المقرئ وأبو نواس الشاعر وعبد الله بن وهب صاحب الملك وورش المقرئ ووكيـع ، و غيرهم .

المأمون

هو عبد اللّه المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي. وأمه أم ولد اسمها مراجل ولد سنة ١٧٠ هـ في اليوم الذي ولي فيه أبوه الخلافة. وولاه أبوه العهد وسنه ١٣ سنة بعد أخيه الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ومنحه بمقتضى الشروط التي عقدها استقلالاً يكاد يكون تاماً، ولما توفي أبوه لم يف له أخوه بعهده بل أراد أن يقدم عليه في ولاية العهد ابنه موسى فأبى ذلك المأمون.

الأحوال في المدة الأولى:

لما تم الأمر للمأمون بالعراق على يد القائدين العظيمين طاهر بن الحسين و هرثمة بن أعين كان الذي يدير الأمر بمرو الفضل بن سهل الذي يرى لنفسه الفضل الأكبر في تأسيس دولة المأمون فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدي طاهر وهرثمة فأصدر أمرين على لسان المأمون أولهما بتولية الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن. وكتب إلى طاهر أن يسلمه جميع ما بيده من الأعمال وأن يشخص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب فلم يسع طاهراً إلا أن يسمع ويطيع فسلم ذلك كله.

والأمر الثاني إلى هرثمة يأمره بالشخوص إلى خراسان فشخص وبذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولا سيما أنهم خارجون من ثورة وهيجان فكان من اللازم أن تظل تلك الأيدي المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا.

ولم يبق المأمون بعد ذلك بخراسان. هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول الخلافة الإسلامية إلى مرو فيجعلها حاضرة البلاد الإسلامية أو رأى أن نفوذه يضعف إذا حل الخليفة بغداد وبها الألسنة التي لا تمل الوشايات فخشي

من ذلك على مركزه سواء كان السبب في تخلفه هذا أو ذاك فقد نتج عن هذا التدبير مضار شديدة واضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثراً بعد عـين؟ شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وأنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده وأنـه يبرم الأمور على هواه فغضب لذلك من كان بالعراق من بني هاشم ووجـوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون واستخفوا بالحسـن بـن سـهل وهاجت الفتن في الأمصار وأول فتنة كانت خروج محمد بـن إبـراهيم بـن إسماعيل بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسن بن علي خرج بالكوفة وقام بـأمر رجل كبير من رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا السري بـن منصـور الشيباني فاستولى على الكوفة من يد نائب عاملها سليمان بـن أبـي جعفـر المنصور فأرسل إليه الحسن بن سهل جيشاً يقوده زهير بن المسيب عشـرة آلاف فهزمه أبو السرايا واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسـلاح ودواب وفي غد ذلك اليوم مات محمد بن إبراهيم فجأة وذلك يوم الخميس أول رجب سنة١٩٩ هـ فولى أبو السرايا بدله غلاماً أمرد حدثاً وهو محمد بـن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي وكان أبو السرايا هو الـذي ينفـذ الأمور ويولي من رأى ويعزل من شاء وإليه الأمور كلها.

أرسل الحسن جيشاً ثانياً بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروذي فتوجه إليه أبو السرايا وأوقع به وقعة في١٧ رجب سنة١٩٩ هـ فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلـت مـنهم أحد.

انتشر بعد ذلك الطالبيون في البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها {إن الله يحب الذين يقاتلون فـي سـبيله صـفاً كـأنهم بنيـان مرصوص}.

وكان للطالبيين في تلك الفتن أسوأ الأثر بمكة والمدينة فإن أبا السرايا، كان قد ولي مكة حسين ابن حسن بن علي بن الحسين بن علي وكان بها داود بن عيسى بن موسى العباسي والياً فلم يرض القتال في الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة ولما تفرق الحاج من مكة جلس خلف المقام على نمرقة مثنية فأمر بثياب الكعبة التي عليها فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئاً ثم كساها ثوبين من خز رقيق كان أبو السرايا وجهه بهما معه مكتوب عليهما أمر به الأصفر بن أبي الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم وكتب سنة١٩٩ هـ ثم قسم الكسوة التي كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد إلى ما في خزانة الكعبة من مال فأخذه ولم يسمع بوديعة عند أحد لبني العباس وأتباعهم إلا هجم عليه في داره فإن وجد من ذلك شيئاً أخذه وعاقب الرجل وإن لم يجد عنده شيئاً حبسه وعذبه حتى يفتدي نفسه بقدر طوله ويقر عنده الشهود أن ذلك للمسودة من بني العباس وأتباعهم حتى عم ذلك خلقاً كثيراً وكان لهم دار اسمها دار العذاب يعذب فيها الناس حتى هرب منهم خلق كثير من أهل النعم فيتبعوهم بهدم دورهم وجعلوا يحكون الذهب الرقيق الذي في رؤوس أساطين المسجد فيخرج من الأسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه حتى عم ذلك أكثر أساطين المسجد الحرام وقلعوا الحديد الذي على شبابيك زمزم وخشب الساج فبيع بالثمن الخسيس.

انتهت هذه الفتن العلوية التي عادت بالضرر على البلاد والعباد والفضل في انتهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحنك. ولما فرغ هرثمة من أداء تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى ا لمأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره ولم يكن مما يروق في عين الفضل فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وأنه هو الذي

دس إلى أبي السرايا حتى صنع ما صنع ولو شاء أن لا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل لأنه كان من ضمن جنوده.

وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتاباً من الطريق ليرجع ويلي الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه. ولما بلغ هرثمة مرو خشي أن يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كي يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة جاء يبرق ويرعد وظن هرثمة أن قوله المقبول فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ما أشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجيء عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه وقد تقدم الفضل إلى الأعوان بالتغليظ عليه والتشديد فمكث في حبسه أياماً ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا إنه مات. هكذا ذهب القائد العظيم من غير جناية ضحية خبث البطانة.

ومما كان في تلك الآونة أن المأمون اختار لولاية عهده عليّ الرضا بن موسى بن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة الذي اختاره شعاراً للدولة الجديدة وكتب بذلك إلى الآفاق ويغلب على الظن أن هذا من عمل الفضل بن سهل لأن الفرس يعجبهم أن يكون إمام المسلمين علوياً ولطالما قاتلوا في سبيل رجوع السلطان إلى بني علي وهذه فرصة يأخذون فيها الخلافة من غير حرب ولا قتال وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل عليّ على غيره من الخلفاء الراشدين وأنه كان أحق بالخلافة منهم ولعل السبب فى ذلك البيئة التي تربى فيها فإنه كان في أول أمره في حجر جعفر البرمكي ثم انتقل إلى الفضل بن سهل وكلهم ممن يتشيع فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه.

بلغ ذلك أهل بغداد فاختلفوا فقال بعضهم نبايع ونلبس الخضرة وقال بعضهم لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل فمكثوا على ذلك أياماً وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم إلى بعض وتكلموا فيه وقالوا نولي بعضنا ونخلع المأمون واتفقوا أخيراً على مبايعة إبراهيم المهدي عم المأمون بالخلافة وخلعوا المأمون وكان ذلك في أول المحرم سنة٢٠٢ هـ.

بلغت هذه الأحوال المأمون ويقال إن الذي أبلغه إياها عليّ الرضا ولي عهده فإنه أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخيه وبما كان الفضل بن سهل يستره عنه من الأخبار وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء فبايعوا لإبراهيم بن المهدي بالخلافة فقال له المأمون: إنما بايعوه ليكون أميراً لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين إبراهيم بن المهدي والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك وسمى له عدة من القواد يشهدون بما قال فأحضرهم المأمون وسألهم فأخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أماناً من الفضل بن سهل وأخبروه بما موّه عليه الفضل في أمر هرثمة وأن هرثمة إنما جاء ناصحاً ليبين له ما يعمل وأنه إن لم يتدارك الأمر خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله وصير في زاوية من الأرض بالرقة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده و أنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما اجترىء به على الحسن بن سهل وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد فإن بني هاشم والموالي والقواد والجنود لو رأوك سكنوا وفاءوا بالطاعة لك.

لما تحقق المأمون من ذلك أمر بالرحيل إلى بغداد ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل بل عاقبهم بالحبس والطرد فراح عليّ الرضا إلى المأمون وأعلمه بما كان من ضمانه لهم فأعلمه أنه يداري ما هو فيه.

ارتحل المأمون من مرو حتى سرخس وهناك شد قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام فضربوه بسيوفهم حتى مات وذلك في ٢ شعبان سنة ٢٠٢ هـ فأخذ ضاربوه وهم أربعة من خدم المأمون فلما جيء بهم إليه قالوا أنت أمرتنا بقتله فأمر بهم فضربت أعناقهم. وسوابق العلة تؤكد أن صدورها كان بتدبير المأمون لأنه أحسّ بثقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وأنه ما دام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة فاحتال بهؤلاء الخدم ثم قتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره أنه صيره مكانه.

رحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر وكان هذا الرحيل سبباً لاختلاف القواد ببغداد على إبراهيم بن المهدي لأن السبب الذي من أجله خلعوا المأمون قد زال فاضطرب أمر إبراهيم ببغداد. لما صار المأمون بطوس حدثت حادثة أخرى وهي وفاة علي الرضا ويتهمون المأمون بأنه سمه وليس عندنا من البراهين ما يؤكد هذه التهمة لأنه بقدر ما يقربها إرادة المأمون التقرب إلى أهل بغداد والعباسيين بالتخلص منه يبعدها ما كان مغروساً في نفس المأمون من محبة آل أبي طالب وأنه صاهر علياً وأن علياً هو الذي أظهر له حقيقة ما كان يدور بالعراق من الفتن ولا يبعد عندي أنه من فعل بعض البطانة المأمونية ليخففوا عن المأمون اضطراب العباسيين ويخلصوا مما يعتقدونه شراً وهو خروج الخلافة من آل العباس. وهناك كتب المأمون إلى بني العباس والموالي وأهل بغداد يعلمهم موت علي بن موسى.

رحل المأمون من طوس إلى الري وهناك تحبب إلى أهلها بإسقاط ألفي ألف درهم من خراجها. وكان كلما قرب من بغداد زاد الاضطراب على

إبراهيم بن المهدي وقام القواد في وجهه حتى كتبوا إلى قائد من قواد الحسن بن سهل يطلبون إليه الحضور ليسلموا إليه بغداد فلم يلبث أن حضر وسلم له جند بغداد المدينة و أعلن خلع إبراهيم بن المهدي والدعوة للمأمون فاختفى إبراهيم ليلة الأربعاء ١٧ذي الحجة سنة٢٠٣ هـ فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهراً وأثني عشر يوماً.

ما زال المأمون ينتقل من منزلة إلى منزلة حتى وصل النهروان و هناك خرج إليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين من الرقة لأنه أمره بذلك وفي يوم السبت لأربع عشر بقيت من صفر سنة٢٠٤ هـ دخل مدينة بغداد في لباسه ولباس أهله الخضرة أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم فلبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون. ومكثوا على ذلك ثمانية أيام فتكلم في ذلك بنو هاشم وولده العباس خاصة وقالوا يا أمير المؤمنين تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتك ولبست الخضرة وكتب إليه في ذلك قواد أهل خراسان وسأله طاهر بن الحسين أن يرجع إلى لبس السواد فلما رأى المأمون طاعة الناس له في لبس الخضرة وكراهتهم لها قعد لهم وعليه ثياب خضر فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ودعا بخلعة سواد فألبسها طاهراً ثم دعا بعدة من قواده فألبسهم أقبية وقلانس سوداً فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد وابتدأ من ذلك الوقت ملك المأمون الحقيقي.

الوزارة في عهد المأمون:

أول وزراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسي الأصل أسلم على يد المأمون سنة١٩٠ هـ ويقال إن أباه سهلا أسلم على يد المهدي و الذي اختار الفضل للمأمون هو الرشيد بإشارة جعفر بن يحيى فكان مدبر أمره وهو ولي عهده ولما فعل الأمين ما فعل دبر الفضل أمر إرسال الجنود وتدبير ما يلزمهم فأرسل طاهر بن الحسين لمحاربة علي بن عيسى بن ماهان. ولما

انتصر طاهر لقب الفضل ذا الرياستين وجعل له علماً على سنان ذي شعبتين وكتب على سيفه من جانب رياسة الحرب ومن الجانب الآخر رياسة التدبير وولاه المأمون في هذه السنة وهي سنة١٩٦ هـ على المشرق كله وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم نحو ستين ألف جنيه.

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل أحمد بن أبي خالد وأصله شامي مولى لبني عامر بن لؤي وكان أبوه كاتباً لعبيد اللّه كاتب المهدي أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل و قال له إني كنت عزمت ألا أستوزر أحداً بعد ذي الرياستين وقد رأيت أن أستوزرك، فقال: يا أمير المؤمنين اجعل بيني وبين الغاية منزلة يتأملها صديقي فيرجوها لي ولا يقول عدوي قد بلغ الغاية وليس إلا الانحطاط. فاستحسن المأمون كلامه واستوزره.

وكان أحمد هذا من خيار الوزراء يحب أن تخلص قلوب الرعية لإمامه فكان دائم المشورة بما يسر أنفسهم ويسل دفين الأحقاد من صدورهم.

ومن عيوب أحمد بن أبي خالد أنه كان شرهاً يتقرب إليه الناس بالمآكل لينالوا ما عنده من المصالح وكان المأمون يعرف ذلك منه فأجرى عليه كل يوم لمائدته ألف درهم لئلا يشره إلى طعام أحد من بطانته وكان مع هذا يشره إلى طعام ا لناس وتمتد عينه إلى هدية تأتيه وكان مع هذا عابس الوجه يهر في وجوه الخاص والعام غير أن فعله كان أحسن من لقائه وكان من عرف أخلاقه وصبر على مداراته نفعه وأكسبه.

توفي أحمد بن أبي خالد في ذي القعدة سنة٢١١ هـ وصلى عليه المأمون ولما دلي في حفرته ترحم عليه.

استوزر المأمون بعده أحمد بن يوسف كان كاتباً من خيرة الكتاب وأجودهم خطاً حتى قال له المأمون يوماً: يا أحمد لوددت أني أخط مثل خطك وعلى صدقة ألف ألف درهم وكان يجيد الكتابة حتى كان المأمون إذا كان يتولى عمرو بن مسعدة ديوان الرسائل كان يكلف أحمد بن يوسف بكتابة

الكتب التي يريد أن تشهر وتذكر وولاه المأمون ديوان السر وبريد خراسان، وصدقات البصرة ولما مات أحمد بن أبي خالد استوزره مكانه.

استوزر المأمون بعده القاضي يحيى بن أكثم التميمي كان من جلة العلماء الفقهاء الذين لهم قدم ثابتة في الحديث والفقه والأصول تولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة ثم اتصل بالمأمون وصله به ثمامة بن أشرس العالم المتكلم الذي كان المأمون يثق به كثيراً فلما احتاج المأمون إلى من يوليه الوزارة عرضها على ثمامة فامتنع منها ووصف له يحيى فاستوزره وولاه مع ذلك قاضي القضاة فكان إليه تدبير المملكة والقضاء وقلما اجتمعا في شخص.

العلويون وآثارهم في الدولة:

قدمنا ما كان من المأمون من اختياره لولاية عهده علي الرضا بن موسى الكاظم وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الإثني عشرية واتخاذه الشعار الأخضر بدل الأسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب في بغداد وقيام أبي السرايا والعلويين الذين قاموا من أجل قيامه في الأمصار الكبرى ثم ما كان من وفاة علي الرضا بطوس وانتهاء فتنة أبي السرايا وسقوط جميع العلويين الذين خرجوا في ذلك الوقت بالبصرة و الحجاز واليمن.

ونزع المأمون للشعار الأخضر بعد حلوله ببغداد وعودته إلى شعار أهل بيته وهو السواد. وكان المأمون قد صاهر علياً فزوجه ابنته ثم زوج محمد بن علي المعروف بالجواد وهو الإمام التاسع من أئمة الشيعة ابنته الأخرى ولم يكن من محمد هذا ما يريب المأمون وكان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده في فضل أبيهم إلى أن خرج في سنة٢٠٧ هـ باليمن من آل أبي طالب عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب فوجه إليه المأمون دينار بن عبد الله في جيش كثيف و كتب معه بأمانه فحضر دينار بن عبد الله الموسم وحج ولما فرغ من حجه

سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن فبعث إليه بأمانه من المأمون فقبل ذلك ودخل ووضع يده في يد دينار فخرج به إلى المأمون فمنع المأمون عند ذ لك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد.

وبسبب اختلال الأمن في البلاد اليمنية ورسوخ التشيع فيها أراد المأمون أن يختار لولاية تهامتها من يأخذ على أيدي المفسدين فيها فأشار عليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبي سفيان وهو محمد بن إبراهيم الزيادي فولاه إياها سنة ٢٠٣ هـ فتوجه فحج ثم ذهب إلى اليمن ففتح تهامة واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤ هـ وهي التي صارت حاضرة تهامة. وقد عظم أمر الزيادي بعد ذلك باليمن وصار كملك مستقل إلا أنه كان يخطب لبني العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا وطال ملكه إلى سنة ٢٤٥ هـ ثم صار الملك في أبنائه ثم في مواليهم وموالي مواليهم إلى سنة ٥٥٤ وتعرف هذه الدولة بالدولة الزيادية وهي أول الدول استقلالاً باليمن.

إبراهيم بن المهدي:

قدمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي إذ كان المأمون بمرو فلما شخص المأمون إلى بغداد وعلم بقدومه القواد الذي كانوا مع إبراهيم تركوه فلما رأى ذلك اختفى وظل مختفياً ببغداد ينتقل من دار إلى دار سنة ٢١٠ هـ وفي تلك السنة أخذه حارس أسود وهو متنقب مع امرأتين في زي امرأة فأعلم المأمون بخبره فأمر بالاحتفاظ به ثم دخل عليه فقال له: هيه يا إبراهيم فقال: يا أمير المؤمنين ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك. قال: بل أعفو يا إبراهيم.

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه قصيدة قال: أقول ما قال يوسف لإخوته {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين}.

بابك الخرمي:

بين أذربيجان وأران في شمال بلاد الفرس كورة تدعى البذ يمر بهـا نهر الرس العظيم بهذه الكورة خرج بابك التي امتدت فتنته زمناً طويلاً فـي عهد المأمون وا لمعتصم وكان خروجه سنة٢٢١ هـ فـي عهـد المـأمون ومنتهاه سنة٢٣١ هـ في عهد المعتصم.

أخذ بابك ومن معه في العيث والفساد وإخافة السبل وأول مـا عـرف ذلك من أمره كان والمأمون بمرو لم يبرحها إلى بغداد فلما شخص المـأمون إلى بغداد عين أحد قواده يحيى بن معاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقعـة لـم ينتصف فيها أحدهما من الآخر فاختار المأمون قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن أبي خالد فولاه أرمينية وأذربيجان و محاربة بابك فنكب ثـم وجـه إليـه صدقة بن علي المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافي فأسره بابك ثم وجه إليه محمد بن حميد الطوسي فقتله بابك سـنة٢١٤ هـ بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه هكذا كان كلما أرسل لحرب بابك قائداً لم يصنع شيئاً لمكان بابك الحصين وقوته الكبيـرة وشـدة تأثيره في قلوب الجمهور الذين كانوا معه وقد ذكر في حوادث سنة٢٢٨ هـ دخول جماعة كثيرة من أهل الجبـال مـن همـذان وأصـبهان وماسـبذان ومهرجان قذق في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان ذلك أول ولاية المعتصم فوجه إليهم الجنود وكان آخر عسـكر وجـه إلـيهم وجهـه المعتصم مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وعقد له على الجبـال فشـخص إليهم وفض جموعهم وقتل في عمل همذان ستين ألفاً منهم وهرب سائرهم إلى بلاد الروم فقبلهم ملك الروم أحسن قبول وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أموره.

وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم حين أدركته المنية والخرمية فاغزهم ذا جزامة و صرامة وجلد واكنفه بالأموال والسـلاح والجنـود مـن

الفرسان والرجالة فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك وأعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه لذلك بذل المعتصم جهده في كسر شوكة بابك لئلا يمتد شر بدعته في البلاد الفارسية فاختار لحربه قائداً تركياً من كبار قواده وهو حيدر بن كلوس الأشروسني المعروف بالأفشين (الأفشين لقب لملوك أشروسنة) وذلك سنة ٢٢٠ هـ.

توجه الأفشين حتى أتى برزند فعسكر بها ورم الحصون فيما بين برزند وأردبيل وأنزل قواداً من قواده ببعض الحصون هناك لحراسة القوافل والسابلة وأطلق الأفشين عيونه وجواسيسه لتعرف الأخبار عن بابك. وأول وقعة كانت بينه وبين عسكر بابك بأرشق أحد حصون الأفشين حيث خرج بابك ليقتنص مالاً أرسله المعصتم مع أحد قواده فبلغ خبره الأفشين فخرج إليه سراً والتقيا على مقربة من الحصن فأتى جند الأفشين على جميع رجالة بابك وأفلت هو في نفر يسير ودخل موقان ومنها توجه إلى البذ وعاد الأفشين إلى عسكره ببرزند.

استمرت الحروب بين الأفشين وبابك مدة طويلة وكانوا لا يتحاربون إلا إذا انصرم الشتاء لمكان الثلوج الشديدة التي كانت تكسو رؤوس الجبال وتمنع المشاة من التقدم إلى أن كان الربيع سنة ٢٢١ هـ فسار الأفشين من مكانه يريد مهاجمة البذ وأخذه عنوة فسار محترساً وقد رتب أموره أدق ترتيب لما هو قادم عليه فاستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما وانتهى الأمر باقتحام المسلمين البذ واستيلائهم عليها وقد أراد بابك الهرب وشرع فيه فأفسد عليه الأفشين تدبيره وسد عليه المسالك وأوقف عليها جنداً من جيشه وأخيراً قبض عليه وعلى أخيه عبد الله وعاد بهما الأفشين إلى سامرا كما أمره المعتصم ومعهما ١٧ رجلاً من أهل بيته ومن البنات والكتاب ٢٣ امرأة وكان يوم دخولهم سامرا يوماً مشهوداً ثم قتل بابك وصلب بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد.

وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة ٢٥٥٠٠٠ إنسان وغلب كثيراً من القواد الذين ذكرناهم وكان عنده من الأسرى الذين استنقذهم الأفشين ٧٦٠٠.

العلم في عهد المأمون :

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم في العصر العباسي وذلك لأمرين الأول أن المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو فقد جالس كثيراً من العلماء وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية فكان لذلك محباً للعلم ولازدياد نشره. الثاني ما كان من الأمة نفسها إذ ذاك حيث وجد فيها شوق إلى العلم والبحث وكثرة العلماء في كل مصر من أمصار المسلمين كما سنبينه فتوافق رأي الإمام واستعداد الأمة فكان من وراء ذلك ما نقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد.

أما العلوم الدينية فمنها ما يرجع لأصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد ومنها ما يرجع إلى أحكام الأعمال وهي الفقه وأصوله وأدلة تلك الأحكام من القرآن والحديث.

الأحوال الخارجية:

لم يكن بين المسلمين والروم حروب في أول عهد المأمون إلى سنة ٢١٥ هـ وفيها شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم في المحرم (مارس سنة ٨٣٠ م) واستخلف على المدينة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وسلك طريق الموصل حتى صار إلى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة ومنها خرج إلى طرسوس وهي الثغر الإسلامي ومن طرسوس دخل إلى بلاد الروم في منتصف جمادى الأولى (يوليه سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه. ولما تم فتحه اشترى السبي بستة و خمسين ألف دينار

ثم خلى سبيلهم وأعطاهم ديناراً ديناراً وكان قبل ذلك الفتح حصناً اسمه ماجدة فمن على أهله ثم أرسل أشناس إلى حصن سندس فأتاه برأسه ووجه عجيفاً وجعفر الخياط إلى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع.

وبعد ذلك شخص إلى الشام وهناك ورد الخبر عليه بأن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يقال ٦٦٠٠ فأعاد الكرة على بلاد الروم فنزل على أنطيغوا فخرج أهلها على صلح و صار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه إسحاق فافتتح ثلاثين حصناً ووجه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار وغنم ورجع إلى العسكر ثم خرج المأمون إلى كيسوم ثم إلى دمشق ومنها خرج إلى مصر في١٦ الحجة سنة٢١٦ هـ ثم عاد منها إلى دمشق سنة٢١٧ هـ فدخل أرض الروم ثالث مرة فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفاً فاختدعه أهلها وأسروه فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه وسار توفيل إلى لؤلؤة فأحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود إليه فارتحل توفيل لموافاتهم وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بالأمان.

وكاتب ملك الروم المأمون في سفرته هذه وأجابه المأمون على كتابه.

أخلاق المأمون:

أول ما ظهر من خلق المأمون ميله للعفو وكراهته للانتقام فإنه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه ولم يهجهم بشيء حتى الفضل بن الربيع الذي أخذ قواده وسلاحه وجنوده وجميع ما أوصى به أبوه له فذهب به إلى الأمين وتركه بمرو مجرداً عن كل ذلك ثم أفسد عليه أخاه و أغراه على خلعه وكان أشد عليه من كل شيء ومع هذا لم يؤاخذه بجرمه ولما دخل على المأمون وأعلنه المأمون بالعفو سأله الرضا فقال المأمون: لأجل العفو لا يكون إلا عن رضا وسجد المأمون شكراً لله على أن ألهمه نعمة العفو عنه وقال:

الحمد لله قديماً كنت أسلم عليه فأفرح برده فسبحان الذي ألهمني الصفح عنه فلذلك سجدت قال طاهر بن الحسين: فعجبت لسعة حلمه. وقال زيد بن علي بن الحسين جلس المأمون يوماً للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه إذ انهملت عين المأمون فلما سئل عن سبب بكائه قال ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لأحد ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته وذكر نعمته التي أتمها عليّ كما أتمها على أبوي من قبلي.

وكان له في العفو لذة لا يعادلها لذة حتى إنه لما ظفر بعمه إبراهيم عفا عنه مع عظيم جرمه وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذي أحس من نفسه بقدرة السلطان فأذهب ذلك عنه الحفيظة.

ومن مزايا المأمون أنه كان في جدله ميالاً إلى الإقناع فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة وله في ذلك مجالس مأثورة مشهورة ،وله في الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره في المناقشة ،وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل. أراد مرة أن ينتقص معاوية بن أبي سفيان ويلعنه فقال له يحيى بن أكثم: إن العامة لا تحتمل مثل هذا لا سيما أهل خراسان، ولا تأمن أن يكون لهم نفرة، وإن كانت، لم تدر ما عاقبتها،والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق، فإن ذلك أصلح في السياسة ،وأحرى في التدبير، فاتبع المأمون نصيحته وطوى الكتاب الذي كان قد أنشئ في هذا المعنى ،فلم يقرأ على العامة، ولكنه بقي في دفاترهم مسجلاً.

كان المأمون مع حلمه يعلم ما عليه رؤساء جنده ورجال دولته ،فلم يكن بالمغفل الذي ينخدع برياء الناس ونفاقهم وظهورهم بما ليس من شيمهم .قال يوماً وفي مجلسه جماعة: ما في عسكرنا من يطلب ما عندنا بالرياء فقال كل واحد بما عنده إما أن يقول في عدو يقدح فيه أو يقول بما يعلم أنه يسر

خليفته فلما قالوا ذلك، قال: ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتي ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء حتى لو كان قد أقام في زحل كل واحد منهم حولاً ما زاد على معرفته.

قعد مرة للمظالم فقدم إليه أصحاب الحاجات فقضى ما شاء من حاجاتهم وكان فيهم نصراني من أهل كسكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له في طريقه فلما بصرَ به المأمون أثبته معرفة فأمر سلما صاحب الحوائج أن يبطحه ويضربه عشرين درة وقال لسلم: قل له لا يعود يصيح بي فقال له سلم ذلك وهو مبطوح فقال الرجل: أعود وأعود وأعود حتى تنظر في حاجتي فأبلغه سلم ذلك فقال: هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ثم قال لأبي عياد: اقض حاجة هذا كائنة ما كانت الساعة فلا أدري مم يعجب الإنسان أمن ملاحظة المأمون وعرفان الرجل لأنه هو الذي صاح به مرة أو مرتين أم من تأميل الرجل فيه بعد أن أمر بضربه أم من رجوع المأمون عن خطئه فيما صنع وأمره بقضاء حاجة الرجل كائنة ما كانت.

وكان مع هذه الأخلاق أديباً يعرف جيد الشعر ورديئه ويثيب على ما أعجبه منه ثواباً فوق كل أمل.

أما كرمه فمما سارت به الأمثال فقد أربى على جميع خلفاء بني العباس حتى على أبيه الذي كان يعطي عطاء من لا يخاف فقراً ولا يخشى إقلالاً ،وحكايات المأمون في العطاء كثيرة فلا نطيل بذكرها إلا أننا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف في القوم وسعة اليد وكثرة البذل.

بنى المأمون سنة ١٢٠ هـ ببوران بنت الحسن بن سهل في فم الصلح واحتفل بأمرها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في مصر من الأمصار وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها وقرأ ما فيها ثم يمضي إلى

الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوماً وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم وأمر المأمون له عند انصرافه بعشرة آلاف ألف درهم وأقطعه فم الصلح وأطلق له خراج فارس، وكور الأهواز مدة سنة. وهذا سرف عظيم سهل أمره الوارد الكثير.

وفاة المأمون:

بينما كان المأمون ببلاد الروم في آخر غزواته وهو بالبدندون شمالي طرطوس أصابته حمى لم تمهله كثيراً وفي ١٨ رجب سنة٢١٨ هـ أدركته منيته فحمل إلى طرطوس و دفن بها وكانت سنه إذ توفى ٤٨ سنة.

ولاية العهد

عهد المأمون وهو مريض إلى أخيه أبي إسحاق بن الرشيد ولم يخطىء خطأ من قبله بالعهد إلى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة ومما جاء فيها واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ،ولا تغتر بالله ومهلته، فكأن قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعية، العوام العوام فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم في شيء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت .

المعتصم

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور وأمه أم ولد اسمها ماردة ولد سنة١٧٩ هـ فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان في عهد أخيه المأمون والياً على الشام ومصر وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون ببلاد الروم بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله في١٩ رجب سنة٢١٨ هـ (١٠ أغسطس سنة٨٣٣ ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة سامرا في ١٨ ربيع الأول سنة٢٢٧هـ (٤ فبراير سنة٨٤٢ فكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام.

الأحوال في عهد المعتصم:

بعد أن تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم عاد بالعسكر قاصداً بغداد بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأحرق ما لم يقدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكنه ذلك من الناس إلى بلادهم. وكان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل رمضان سنة٢١٨هـ.

وزراء المعتصم:

الفضل بن مروان بن ماسرخس. كان رجلاً نصرانياً من أهل البردان وكان متصلاً برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط ثم صار مع كاتب كان للمعتصم قبل أن يستخلف وهذا الكاتب هو يحيى الجرمقاني فلما مات يحيى صير الفضل في موضعه ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التي بلغها والفضل كاتبه.

واستوزر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات كان جده أبان رجلاً قروياً من الدسكرة يجلب الزيت من موضعه إلى بغداد فعرف محمد به.

وكان محمد بن عبد الملك مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك شاعراً ظريفاً.

العلويون في عهد المعتصم:

لأول عهده توفي محمد الجواد بن علي الرضا تاسع أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية وكانت وفاته سنة٢٢٠ هـ وسنه٢٥ سنة وكانت تحته أم الفضل بنت المأمون فحملت إلى قصر عمها المعتصم فتولى الإمامة بعده ابنه أبو الحسن علي الهادي وكانت سنه حين مات أبوه سبع سنين.

وخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي. كان مقيماً بالكوفة ثم خرج منها إلى الطالقان من خراسان يدعو الرضا من آل محمد صلى اللّٰه عليه وسلم فاجتمع إليه بها ناس كثير فاهتم بأمره عبد اللّٰه بن طاهر أمير خراسان وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحية الطالقان وجبالها فهزم هو وأصحابه فخرج هارباً يريد بعض كور خراسان كان أهله كاتبوه فلما وصل إلى نسا دل عليه فأخذه عاملها واستوثق منه و بعث به إلى عبد اللّٰه بن طاهر فأرسل به إلى المعتصم فحبس بسامرا سنة٢١٩ هـ فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة فاحتال للخروج بواسطة رجال من شيعته فهرب، ولم يعرف له خبر.

العلاقات الخارجية:

قدمنا أن الذي كان يعاصر المعتصم من ملوك الروم توفيل بن ميخائيل وكان ينتهز الفرص لينتقم من المسلمين الذين دوخوه وألزموه أن يدفع الفدية قهراً فحدث أنه لما كان الأفشين يحارب بابك وقد ضيق عليه أن كتب بابك إلى ملك الروم يقول: إن ملك العرب قد وجه معظم عساكره إليّ ولم يبق على بابه أحد فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك وكان يطمع أن ملك الروم إذا تحرك ينكشف عنه بعض ما هو فيه فلم يلبث توفيل أن خرج

في مائة ألف مقاتل حتى أتى زبطرة ومعه جمع من المحمرة الذين أجلاهم إسحاق بن إبراهيم عن الجبال كما ذكرنا ذلك في حروب البابكية فلما دخل زبطرة قتل من فيها من الرجال وسبى النساء والذرية وأحرق المدينة ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصن من حصون المسلمين وسبى من المسلمات فيما قيل أكثر من ألف امرأة ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم. بلغت ذلك الأخبار المعتصم بسامرا فاشتد عليه وصاح في قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالاً وسكة حديد وحقيبة فلم يستقم له الخروج إلا بعد التعبئة ولكنه أرسل مقدمته لتكون مدداً لأهل زبطرة فلما شارفتها وجدت ملك الروم قد رحل عنها فوقفوا قليلاً حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا.

فتح عمورية:

فلما انتهى أمر بابك سأل المعتصم أي بلاد الروم أمنع وأحصن فقيل عمورية وهي مسقط رأس توفيل كما أن زبطرة مسقط رأس المعتصم ولم تكن غزيت قبل ذلك فتجهز المعتصم جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط وكانت التعبئة هكذا على المقدمة أشناس ويتلوه عمد بن إبراهيم المصعبي وعلى الميمنة إيتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط وأمر الأفشين أن يمضي فيدخل بلاد الروم من درب الحدث وسمى له يوماً أمره أن يكون وصوله فيه إلى أنقرة وقدر هذا اليوم بنفسه لأشناس الذي أمره أن يكون دخوله من درب طرسوس. ولما وصل أشناس إلى مرج الأسقف ورد عليه كتاب من المعتصم يأمره بالتوقف لأنه بلغه عن ملك الروم أنه على نهر اللامس ويريد العبور ليكبس أشناس وجنده فأقام بالمرج ثلاثة أيام ثم علم بواسطة الجواسيس أن ملك الروم ارتحل عن نهر اللامس يريد مقابلة الأفشين فأرسل بخبر ذلك إلى المعتصم فبعث الأدلاء مسرعين يخبرون الأفشين بذلك

وأمره أن يقف مكانه حذراً من مواقعة ملك الروم قبل أن تجتمع الجيوش فلم تصل هذه الأدلاء إلى الأفشين فتم على مسيره حتى التقى بملك الروم فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الأفشين أول النهار ثم أعاد الكرة في الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة وتفرقت عنه الجنود. أما عسكر أشناس والمعتصم فإنهما وردوا أنقرة من غير أن يلقيا حرباً لتفرق الجموع التي كان الملك قد جعلها لمحاربة المعتصم ثم ورد الأفشين بعد مقدمهما بيوم أنقرة.

وحينئذ قسم المعتصم الجيش ثلاثة أقسام قسم فيه أشناس في الميسرة وقسم فيه المعتصم وهو القلب وقسم فيه الأفشين وهو الميمنة وبين كل قسم فرسخان فسارت هذه الأقسام على تعبئة وسارت هذه الأقسام حتى بلغت عمورية وبينها وبين أنقرة سبع مراحل كان أول من وردها أشناس فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها وجاء بعده المعتصم فدار حولها دورة ثم جاء الأفشين كذلك، تحصن أهل عمورية وتحرزوا فحصرها الجيش المعتصمي و كان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة وكثرة ونصبت المجانيق فضربه بها الأسوار لإتلافها حتى سقط منها جانب في ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وعمال جسام ثم حصل القتال في ناحية هذه الثلمة بعد أن ردمت الخنادق ولم يزل القتال مستمراً حتى اقتحم المسلمون عمورية عنوة وغنموا مغانم كثيرة. وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه في زبطرة وملطية وبعد انتهاء الواقعة عاد المعتصم إلى طرسوس وكانت إناخته على عمورية في ٦رمضان سنة٢٢٣ هـ وقفل عنها بعد٥٥ يوماً.

ومن غريب الأمور وأكبر الجرائم أن العباس بن المأمون اتفق مع بعض قواد المعتصم من الأتراك على أن يغتالوا المعتصم ويقيموه خليفة مقامه، تآمروا على ذلك وهم في وجه العدو والعهد قريب باصطناع المعتصم لهم وإغداق النعم عليهم فلم يتم لهم غرض واطلع المعتصم على سر

مؤامرتهم فأخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس العباس حتى مات من شـدة الأذى وكان الذي تولى كلّ ذلك عجيب بن عنبسة.

ولما ورد المعتصم سامرا كان دخوله إليها يوماً مشهوداً وامتدحه أبـو تمام حبيب بنْ أوس بقصيدته المشهورة التي أولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

صفات المعتصم:

كانت أظهر صفات المعتصم الشجاعة والإقدام وشدة البأس وكان يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة فأولها عمران الأرض التي يحياها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال وتعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثـر الكسب ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملـك إذا وجـدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة عشـرين درهـم فـلا تؤامرني فيه.

ولم يكن للمعتصم نفوذ في العلم كأخيه المأمون ولا كأبيه الرشيد وإنما كان همه الجيش وتحسينه. ومن آثاره اختطاط مدينة سامرا.

وفاة المعتصم:

احتجم المعتصم في أول يوم من المحرم سنة٢٢٧ هـ فأصيب عقب ذلك بعلته التي قضت عليه يوم الخميس لثماني ليال مضت من شـهر ربيـع الأول من تلك السنة ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقـال: قـد قلـت إذ غيبوك واصطفقت عليك أيـــد بالتراب والطين   إذهب فـنعم الحفـيظ كنـت على الدنيا ونعم الظهير للدين   لا جبر اللّه أمـــة فقدت مثلك إلا بمثل هـــارون

ولاية العهد:

ولى المعتصم عهده ابنه هارون ولم يجعل معه في الولاية غيره.

الواثق

هو أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد وأمه ولد رومية اسمها قراطيس ولد سنة١٨٦ هـ بطريق مكة وبويع بالخلافة عقب وفاة والده في يوم الخميس٨ ربيع الأول سنة٢٢٧ هـ (٥ يناير سنة ٨٤٢ م ولم يزل خليفة إلى أن توفي لست بقين من ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ (أغسطس سنة ٨٤٧ م فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر و١٥يوماً وسنه٣٦ سنة.

وزراء الواثق:

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه وكان الواثق متغيراً عليه في حياة أبيه حتى حلف أنه لينكبه إذا صار خليفة لكنه لما استخلف غلب عقله على هواه لأنه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك فكفر عن يمينه وصار هذا الوزير في عهده صاحب الأمر والنهي أكثر مما كان في عهد أبيه

الجيش:

كانت حال الجيش لعهد الواثق كما كانت في حياة أبيه إلا أن قدم المماليك التي اصطنعهم المعتصم قد توطدت وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم ولا سيما أشناس الذي توجه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر في شهر رمضان سنة٢٢٨ هـ وقد قام قواد الأتراك بأعظم الأعمال الحربية حتى في جزيرة العرب نفسها التي كانت حمى ما يستطاع أن تتعدى حدوده

الفداء بين المسلمين والروم:

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم ولم تقدر إحدى الدولتين أن تتغلب على الأخرى وكثيراً ما يكون في يد إحدى الدولتين أسرى من الأخرى ولما كان يهم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذراً من الاسترقاق كانتا تتفقان على المفاداة كل أسير بمثله وأول فداء حصل كان في عهد الرشيد

على نهر اللامس قريباً من طرطوس فودي فيه بثلاثة آلاف وسبعمائة أسير من المسلمين على يد القاسم بن الرشيد وحصل فداء مثله في عهده أيضاً فودي بألفين وخمسين.

وقد كان الفداء الثالث في عهد الواثق سنة٢٣١ هـ أرسل ملك الروم إلى الواثق رسلاً يسألونه أن يفادي بمن في يده من أسارى المسلمين فأجاب وانتدب للفداء خاقان الخادم بعد أن أعد من أسرى الروم عدداً كبيراً وقد تقابل الفريقان في يوم عاشوراء سنة٢٣١ هـ على نهر اللامس وكان عدد من فودي به من المسلمين٤٦٠٠ منهم نساء وصبيان ومنهم من أهل الذمة نحو٥٠٠ فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيراً أو كبيراً وقد عقد المسلمون جسراً على النهروعقد الروم جسراً فكان المسلمون يرسلون الرومي على جسرهم ويرسل الروم المسلم على جسرهم وقد أعطى خاقان الروم ممن كان فضل في يده نفس ليكون له عليهم الفضل استظهاراً.

صفات الواثق:

كان الواثق كثير الأ كل والشرب واسع المعروف متعطفاً على أهل بيته متفقداً لرعيته وكان محباً للنظر مكرماً لأهله مبغضاً للتقليد وأهله محباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين وكان له مجلس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع فكانت سيرته في ذلك سيرة عمه المأمون ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن في عهده شكلاً حاداً أكثر مما كانت في عهد أبيه المعتصم لأن المعتصم كان يتكلف ذلك لمكان وصية أخيه.

وفاة الواثق

أصيب الواثق بعلة الاستسقاء وكانت سبب وفاته في٦ ذي الحجة٢٣٢ هـ وسنه٣٦ سنة وبموته مضى على الدولة العباسية قرن كامل. ولم يعهد

الواثق لأحد من بعده بالخلافة فخلافته من بعده شهدت شكلا جديدا لم تكن له سابقة في الدولة العباسية وقد ختم هذا القرن بانتهاء الخلفاء العسكريين الذين كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم ويخوضون غمرات المـوت ولا يستسـلمون لداعي الترف المضني.

الخلفاء والوزراء

كان الخليفة العباسي ينيب عنه وزيراً يفوض إليه السلطة المدنية، وقاضياً يكل إليه أعباء الأمور الشرعية، وأميراً يستعمله على الجيش والمهام الحربية، وكان الخليفة نفسه محور السلطة والمرجع الأخير لكل شؤون الدولة. وعلى هذا النظام الملكي المقتبس من ملوك فارس الأول جرى خلفاء بغداد. وقد استفاد بنو العباس في مطلع عهدهم من انقلاب الأمة على بني أمية ونقمتها عليهم واعتبارها إياهم مارقين، فوطدوا عرشهم على أساس الدين وجعلوا للإمامة أهمية كبرى: وكانوا يلجأون إلى تمكينها والرفع من شأنها كلما قل شأنهم السياسي وفترت طاعة الناس لهم. فمن عهد الخليفة الثامن المعتصم بالله (٨٣٣ – ٨٤٢م) إلى آخر أيام الدولة، نرى الخلفاء يتخذون لأنفسهم ألقاباً فخرية مركبة من اسم الخليفة كالواثق والمتوكل والمستعين واسم الله حتى إذا جاء دور انحطاطهم أخذ الناس يغدقون عليهم الألقاب الدينية كخليفة الله وظل الله على الأرض وغير ذلك من النعوت. وكان المتوكل (٨٤٧ – ٨٦١م) فيما يبدو أول من انتحل شيئاً من هذه الألقاب وظلت مألوفة إلى آخر أيام العباسيين.

نظام الاستخلاف

أما نظام الاستخلاف المبهم الذي وضع في عهد الأمويين فقد روعي في دور العباسيين فنجمت عنه العواقب الوخيمة نفسها. فقد كان الخليفة يعين لولاية العهد من أبنائه أو أهل قرابته من هم أحبهم إليه أو من يعتقد فيه الكفاءة لها. وعملا بهذا النظام أوصى السفاح بالأمر من بعده لأخيه المنصور، واستخلف المنصور بعده ابنه المهدي.

وبعد المهدي تولى بكره الهادي ثم أخوه هارون الرشيد فأوصى الرشيد بالخلافة للأمين على أن تكون من بعده لأخيه المأمون، وكان المأمون أكثر كفاءة من أخيه.

ثم إن الرشيد قسم الدولة بين ابنيه فجعل المأمون على خراسان

وعاصمتها مرو وظل باقي الإمبراطورية بيد الأمين، فنشب نزاع شديد بين الاثنين انتهى باغتيال الأمين (ايلول/سبتمبر ٨١٣م) واغتصاب المأمون للعرش. ومرت سنوات أربع لبس المأمون بعدها اللباس الأخضر وهو شعار الشيعة بدلاً من اللباس الأسود شعار العباسيين وأقام علي الرضا ولياً لعهده، فانتفض عليه أهل بغداد وبايعوا (في يوليو/تموز ٨١٧م) عمه ابراهيم المهدي، فلم تتسن للمأمون العودة إلى عاصمة الدولة حتى سنة ٨١٩ م أي بعد مضي ست سنوات على موت أخيه الأمين، واختار المأمون قبيل وفاته أخاه المعتصم لولاية العهد غير ملتفت إلى ابنه العباس، فكادت الفتنة أن تظهر رأسها في صفوف الجيش الذي كان يعطف على الابن، وبعد المعتصم تولى ابنه الواثق (المتوفى ٨٤٧م) وبه انتهى دور العز والقوة. وقد طالت مدة الخلفاء الأربعة والعشرين الأول نحو قرنين ونصف القرن (٧٥٠ – ٩٩٠م) فلم يكن منهم إلا ستة فقط خلفهم أبناؤهم في الحكم.

واتخذ الخليفة العباسي في بلاطه حاجباً له كان يقدم شعراء الدول والعظماء إلى حضرة أمير المؤمنين فكان لذلك ذا نفوذ عظيم. وهناك الجلاد وكان من ذوي الشخصيات البارزة في بلاط بغداد. ولأول مرة في تاريخ العرب صرنا نرى الحجرات المقببة تحت الأرض لتعذيب المغضوب عليهم. أما منجم البلاط فكان عمله كعمل الجلاد من الأمور التي اقتبسها الخلفاء عن الفرس ولم يكن لعرش بني العباس غنى عنه.

منصب الوزير

أما منصب الوزير فلم تكن له صورة واضحة في عهد أبي سلمة الخلال أول وزراء العباسيين، غير أنه تدرج حتى اتخذ شكله النهائي في أواخر العصر العباسي الأول. وكان الوزير ساعد الخليفة الأيمن، ينوب عنه في حكم البلاد، وينصب العمال ويشرف على الضرائب، ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية إلى جانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته.

وكان الوزراء في العصر العباسي الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم. فكان كل منهم يتجنب أن يسمي وزيراً بعد أن مات أبو الجهم علـى يـد المنصور. وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء، ويأبى أن يسمى وزيـراً، على الرغم من منزلته عند الخلفاء.

وهكذا كان حال الوزارة في أيام المنصور بل في الصدر الأول من هذا العصر، حيث استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكي أبا أيوب المورياني، وكان من أهل موريان.

وكان المنصور قد اشتراه صبياً قبل أن يلي الخلافة، فثقّفـه وعلمـه، وكذلك استوزر الربيع بين يونس "وكان نبيلاً حازماً، عـاقلاً فطنـاً، خبيـراً بالأمور الحسابية، ملماً بشؤون الدولة، محباً لفعل الخير، عارفاً بآداب الملوك". وكانت أعمال الوزارة في عهد المهدي أوضح، وبدا أصحابها أكثر عملاً ممـا كانت عليه أيام المنصور، لأن المهدي كان يعتمد على وزرائه بسبب كفـايتهم وانشغاله هو باللهو، وكان أول هؤلاء الوزراء أبوعبيد الله معاوية بـن يسـار الذي تقلد الكتابة للمهدي قبل أن يلي الخلافة. وقد عرف له المنصور فضـله، وعزم على أن يستوزره لنفسه، ولكنه آثر ابنه المهدي، ونصح لـه أن يعمـل برأيه ويتبع مشورته، ولما ولي المهدي الخلافة فوض إليـه الأمـور وسـلمه الدواوين.

مبدأ الحق الإلهي:

وكان من الخلفاء العباسيين من يمنح الوزير سلطته ويفوضه عنه مـن أجل الانصراف إلى الملذات واللهو، مما جعل مكانة الوزير ترتفع وتزداد قوة، ونحن نجد ذلك في وثيقة الاعتماد التي كتبت حينما استوزر الخليفـة الناصـر (١١٨٠ - ١٢٢٥م) وزيره محمد بن برز القمي ما يشعر بمبدأ الحق الإلهي - وقد جاء فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، محمد بن برز القمي نائبنا في البلاد والعبـاد، فمـن

أطاعه أطاعنا ومن أطاعنا فقد أطاع الله ومن أطاع الله أدخله الجنة، ومن عصاه فقد عصانا ومن عصانا فقد عصى الله ومن عصى الله أدخله النار".

وكان للوزير من السلطة من عرفناه في البرامكة فهو يعين أو يعزل العمال والقضاة (بعد مراجعة الخليفة اسمياً) بل يعين أحياناً من يلي الوزارة بعده عملاً بنظام الوراثة الذي أشرنا إليه من قبل. وجرت العادة أن يعهد إلى الوزير بمصادرة أملاك من يغضب عليه الخليفة من العمال. وكذلك كان يفعل العمال في الأمصار فيصادرون أملاك صغار الموظفين وسواهم، بل كذلك كان الخليفة يفعل بالوزير حين يغضب عليه ويصرفه.

ولم يقف قصاص المغضوب عليهم من الوزراء عند مصادرة أملاكهم بل كانوا في الغالب عرضة للقتل، وأنشيء أخيراً ديوان خاص للمصادرات وكان يعتبر كسائر الدوائر القانونية في الدولة. وكان الوزير أيام الخليفة المعتضد يتقاضى راتباً شهرياً قدره ألف دينار.

والوزارة في رأي الماوردي وغيره من المتشرعين النظريين على ضربين: وزارة تفويض ووزارة تنفيذ. فأما وزارة التفويض، فهي أن يفوض الخليفة تدبير كل الأمور إلى وزيره ما عدا تعيين ولي العهد، أما وزارة التنفيذ، فحكمها أن يكون الوزير مقصوراً على رأي الخليفة يؤدي ما أمر وينفذ ما ذكر. وبعد ولاية المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢م) ألغيت الوزارة وقام على أثرها منصب أمير الأمراء ولم يلبث أن تسلم بنو بويه زمام هذا المنصب.

أبرز المظاهر الحضارية

في دولة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي الأول

تمثلت المظاهر الحضارية في دولة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي الأول في عدة أمور، لعل من أبرزها : النهضة الفكرية في مجال العلوم الإسلامية وتنظيمها . وحركة الترجمة للعلوم التجريبية . ثم مكتبة بيت الحكمة في بغداد وأثرها في النهضة الفكرية . وسنفرد لكل نقطة بعض السطور لمزيد من التوضيح :

أولا : النهضة الفكرية في مجال العلوم الإسلامية وتنظيمها :

ازدان العصر العباسي الأول بالنشاط الفكري ، والرحلة في طلب العلم، وتدوينه ، وحفظه ، وأصبح هناك عدد كبير من المصنفين في مجال العلوم الإسلامية ، بعضهم جاء من خارج الجزيرة العربية ، وبعضهم من العرب ، لكنهم جميعا انصهروا في بوتقة العلم ، فصاروا أعلاما كبارا ، ينهل الناس منهم .

ولعل "من أشهر المصنفين في هذا العصر مالك الذي ألف الموطأ، وابن إسحاق الذي كتب السيرة، وأبو حنيفة الذي صنف الفقه والرأي. ويرجع إلى أبي جعفر المنصور الفضل في توجيه العلماء هذا الاتجاه، و قد كان المنصور كما يقول السيوطي :كامل العقل، جيد المشاركة في العلم والأدب، فقيها تلقى العلم عن أبيه و عن عطاء بن يسار. و تطورت العلوم في العصر العباسي الأول وانتقلت من مرحلة التلقين الشفوي إلى مرحلة التدوين والتوثيق في كتب وموسوعات" .

ثم بدأ تنظيم العلوم الإسلامية الذي "وصل درجة عالية من الدقة والتنظيم في العصر العباسي الأول:

- فقد شهد هذا العصر ميلاد علم تفسير القرآن و فصله عن علم الحديث.

- وعاش في هذا العصر أئمة الفقه الأربعة: أبو حنيفة (١٥٠ للهجرة)، و مالك (١٧٩ للهجرة)، و الشافعي (٢٠٤ للهجرة)، و ابن حنبل (٢٤١ للهجرة).
- وظهرت في الفقه الإسلامي مدرستان علميتان كبيرتان هما مدرسة أهل الرأي في العراق، ومدرسة أهل الحديث في المدينة المنورة.
- وحفل هذا العصر أيضًا بأئمة النحو وظهرت في علوم اللغة مدرستان علميتان هما: مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، فقد عاش في هذا العصر من أئمة النحاة البصريين عيسى بن عمر الثقفي (١٤٩ للهجرة)، و أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ للهجرة)، و الخليل بن احمد (١٧٥ للهجرة)، و الأخفش (١٧٧ للهجرة)، و سيبويه (١٨٠ للهجرة)، و يونس بن حبيب (١٨٢ للهجرة)، و من الأئمة الكوفيين أبو جعفر الرؤاسي، و الكسائي، و الفراء (٢٠٨ للهجرة).

التاريخ و مولده:

قويت في العصر العباسي الأول فكرة استقلال علم السيرة عن الحديث، ووجدت من ينفذها تنفيذا علميا دقيقا، وهو محمد بن إسحاق (١٥٢ للهجرة تقريبا) و كتابه في السيرة من أقدمها في هذا الموضوع، وقد وصلنا هذا الكتاب بعد أن اختصره ابن هشام (٢١٨ للهجرة) في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام، و من أشهر من صنف في التاريخ في هذا العصر العلامة محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ للهجرة تقريبا) فقد ألف كتاب التاريخ الكبير الذي اعتمد عليه الطبري كثيرا حتى حوادث سنة ١٧٩هـ ، أما الكتاب نفسه فلم يصح وروده لنا، و للواقدي كتاب آخر يعرف بالمغازي و هو بين أيدينا، و ليس هذا كل ما وصل لنا من علم الواقدي، فإن علمه قد جاءنا عن طريق شخص آخر من مؤرخي هذا العصر أيضا و هو كاتبه محمد بن سعد (٢٣٠ للهجرة) الذي

كانت شهرته كاتب الواقدي، و قد خلف لنا محمد بن سعد كتابه القيم الطبقات الكبرى و هو في ثمانية أجزاء يتحدث في الجزء الأول و الثاني عن سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم و في الأجزاء الستة الباقية عن أخبار الصحابة و التابعين، و محمد بن سعد هذا هو أحد شيوخ العلامة البلاذري (٢٧٩ للهجرة)"[١].

تطور نظام الخلافة

أدى نهوض الدولة العباسية إلى تطور نظام الخلافة: فتلك الدولة قامت على كواهل الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية مع منافاة ذلك لحق المساواة الذي أقره القرآن والسنة بين البشر. وحذا العباسيون حذو الأمويين في تولية العهد لأبنائهم. وكان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكي المقدس، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصبا لحق غيره. ولذلك أصبح الخليفة العباسي في نظرهم يحكم بتفويض من الله لا من الشعب، كما يتجلى ذلك في قول أبي جعفر المنصور: "إنما أنا سلطان الله في أرضه" وذلك يخالف ما كانت عليه الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين الذين استمدوا سلطانهم من الشعب ويدل على ذلك قول أبي بكر بعد توليته الخلافة: "فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني"، وقول عمر بن عبدالعزيز: "لست بخير من أحدكم ولكنني أثقلكم حملا".

وقد أقام العباسيون حقهم في الملك على أساس أنهم وارثو بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وعملوا على الاحتفاظ بالخلافة في دولة ثيوقراطية أساس

---

(١) راجع : أ. د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي - الجزء الثالث - الخلافة العباسية مع إهتمامات خاص بالعصر العباسي الأول- الطبعة الحادية عشر ١٩٩٦ م - مكتبة النهضة المصرية .

السيادة فيها لزعماء الدين ليظهروا بذلك الفرق بين السلطتين في عهدهم وفي عهد الأمويين من قبلهم.

وقد حرصوا على الاحتفاظ بهذا المظهر، لأن حقهم يقوم عليه. وعلى هذا، لم يقبلوا أن يكونوا ملوكا فحسب، بل أرادوا أولا أن ينظر إليهم على أنهم أمراء دينيون، وأن يدرك الناس أن حكومتهم حكومة دينية، فقد حلوا محل الأمويين، الذين حكم عليهم الأتقياء بأنهم أهل دنيا، والذين اهتموا في بلاطهم بدمشق وفي قصورهم في الصحراء بالتقاليد والنظم العربية القديمة.

أبهة الأكاسرة

ظل نظام الحكم في الدولة العباسية استبداديا إلى عهد الرشيد، على الرغم من أن أصحاب الدواوين أو البارزين من أصحاب البيت العباسي كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين. أما الخليفة فكان مصدر كل قوة كما كان مرجعا لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة.

وكان من أثر ميل الخلفاء العباسيين إلى الفرس أن اصبح نظام الحكم في عهدهم مماثلا لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان، يقول بالمر: "لما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي، كان طبيعيا أن تسيطر الآراء الفارسية. ولهذا نجد وزيرا من أصل فارسي على رأس الحكومة، كما نجد الخلافة تدار بالنظام نفسه الذي كانت تدار به إمبراطورية آل ساسان. واحتجب الخليفة عن رعيته واتخذ الوزير والسياف، فأحيط شخصه بالقداسة والرهبة. وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي واحتفل بالنيروز والمهرجان والروم وغيرها من الأعياد الفارسية القديمة. لهذا لا نعجب إذا أصبح الخليفة العباسي يعيش عيشة الأكاسرة، تحوطه الأبهة والعظمة، وينحني أمامه الداخل عليه، ويقبل الأرض بين يديه، وإذا قرب منه قبل رداءه، وهو شرف لا يناله إلا رجال الدولة البارزون".

وقد ظلت الحكومة ملكية وراثية استبدادية وولاية العهد استمرت من

الناحية العملية للاحتفاظ بالخلافة في البيت العباسي، وبمظاهر الأبهـة التـي أحاطت بالخلفاء العباسيين، والتي كانت تختلف عن البساطة العربية التي امتاز بها البيت الأموي، وتجلى ذلك الطابع الاستبدادي للحكومة فـي عهـد خلفـاء السفاح. وثمة اختلاف آخر بين البيتين الأموي والعباسي: فإن العنصر العربي في عهد الأمويين كانت له السيادة، على حين ساد في عهد الخلفاء العباسـيين (الأوائل) نفوذ العنصر الفارسي ويرجع قيام الدولة العباسية إلى مساندة الفرس ولذلك أصبح نفوذ هذا العنصر ظاهر الأثر منذ بدايـة حكـم العباسـيين. وإن سقوط البرامكة، تلك الأسرة الفارسية القوية التي تمتعت منذ عهـد المنصـور بنفوذ كبير بلغ ذروته في عهد الرشيد، كان مفاجئا وعلى غير انتظار. وكـان المأمون الخليفة السابع من أم فارسية، كما تزوج بسيدة فارسية أيضا. وبـذلك يمكن القول: إن ظهور العباسيين كان أشبه بثورة تمخضت عن بعـث جديـد لحكم الأكاسرة، وإن بغداد قد أصبحت أشبه بحاضرة لهذه النهضة الفارسية.

وكذلك نجد الخلفاء العباسيين لا يؤمون الناس في الصلاة ولا يقيمـون خطبة الجمعة كما كان يفعل الخلفاء الراشدون وبعض الخلفاء الأمـويين. وإن ذلك المظهر الخارجي الذي أحاط بالخلفاء العباسيين ليختلف عن تلك البسـاطة الأولى التي امتاز بها الاسلام، ويعيد إلى الذاكرة مظاهر الأبهة التي تجلت في البلاط الساساني.

اضف إلى ذلك ارتداء الخليفة بردة النبي صلى الله عليه وسـلم عنـد توليته الخلافة أو حضوره الحفلات الدينية باعتبـاره نائبـا عنـه فـي حكـم المسلمين. كذلك نجد الخليفة العباسي يتلقب بلقب "إمام" توكيداً للمعنى الـديني في خلافة العباسيين، أي أنهم أصبحوا آئمة الناس، بعد أن كان هذا اللقب يطلق في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس في الصلاة، على حين كان الشيعيون يطلقونه على أفراد البيت العلوي الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم.

وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند إلى نظرية التفويض الإلهـي، قرب الخلفاء إليهم العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هذه النظرية التـي أصبح لها شأن في الحياة السياسية في الدولة العباسية.

ولاية العهد

سار العباسيون على نظام تولية العهد لأكثر من واحد وغالوا في ذلك. وقد عهد السفاح (١٣٢ – ١٣٦ هـ) بالخلافة الى أخيه أبي جعفر المنصـور (١٣٦ – ١٥٨ هـ) ثم إلى ابن اخيه عيسى بن موسى بن علي بن عبدالله بن عباس. فلما آلت الخلافة الى المنصور، خلع عيسى بن موسى، وبـايع ابنـه المهدي، وجعل عيسى من بعده. ولمـا ولـي المهـدي (١٥٨ – ١٦٩ هـ) الخلافة، خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، وولى ولديه الهادي ثم هارون الرشيد، كذلك عول الهادي (١٦٩ ١٧٠ هـ) على خلع أخيه هارون والبيعـة لابنه جعفر، مقتديا في ذلك بما فعله أبوه مع عيسى بن موسى، ولـم يحتـرم العهد الذي أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده، وضيق على اخيه هـارون، وحط رجال بلاطه من شأنه حتى مال إلى النزول عن حقه لولا وفاة الهادي.

جاء هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ) فولى عهـده أولاده الثلاثـة: الأمين والمأمون والمؤتمن، وقسم البلاد بينهم، وأعطى كلا منهم الفرصة للدفاع عن حقه، مما أدى الى قيام الفتن والحروب الداخلية. على أن الواثق (٢٢٧ – ٢٣٢ هـ) خرج على هذا النظام، فلم يعهد لابنه محمد. وقد سئل وهـو فـي مرضه الأخير أن يوصي بالخلافة لولده، فقال كلمته المأثورة: "لا يرانـي الله أتقلدها حياً وميتاً" مقتفياً في ذلك أثر عمر بن الخطاب ومعاوية الثاني.

ولا يخفى ما جرته هذه السياسة من إثارة البغضاء والعداوة بين أفـراد البيت المالك، فلا يكاد الأمر يتم لأحد المتنافسين، حتى يعمل على التنكيل بمن ساعد خصمه على إقصائه من ولاية العهد. وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطوراً غريباً، وأصبحت خطراً على كيان الدولة العباسية

الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية

إن الحياة السياسية والاجتماعية والادارية في زمن الدولـــة العباســـية، كانت عرضة للمفاجآت الكثيرة، التي لا يمكن تفسيرها، إلا على قاعدة المنافع والمصالح الشخصية دون سواها.

فكلما ازداد البلاط العباسي غنى كان الفقراء يــزدادون فقــراً. ولمـــا تجزأت الدولة إلى دويلات قام كل من أولياء الأمر بابتزاز أموال رعيته. وأدت الحروب المتواصلة إلى انقاص عدد الرجال العاملين فغــدت أكثــر المــزارع مهجورة خربة وزاد الخراب تكرر الفيضان في ســـهول العـــراق الجنوبيـــة. ولحقت المجاعات بمختلف أنحاء الامبراطورية وانتشرت الأوبئة من طـــاعون وجدري وملاريا وسواها من الأدواء التي كان الإنسان يقف أمامها في العصور الوسطى مكتوف اليدين ففتكت بالسكان فتكاً ذريعاً.

إلى ذلك، عرف العالم الاسلامي في العصر العباسي الرقيق الذي ورث التجارة فيه عن الحضارة الكبيرة القديمة، وخصوصاً عن الحضارة البيزنطية، وقد كان العبيد القوة المحركة في العمل الجماعي في المزارع الكبـــرى وفـــي المناجم، كما كانت اليد العاملة في المدن تتألف من العبيد الأقنان.

أما الخدم في المنازل، فكانوا من الخصيان والجواري والعبيد وكـــذلك كان الموسيقيون والمغنون في قصور الملوك ومنازل الأعيان.

وقد كانت الجوقات الموسيقية التي هي من لوازم حياة النزف والبـــذخ، تتكون من الرقيق الذين أنشئت مدارس خاصة لتعليمهم وتدريبهم علـــى فنـــون الغناء والعزف والرقص والنحو والشعر، في بغداد، والمدينة وقرطبة. والعبيد الذين يتلقون التعليم والتدريب، يباعون بأسعار مرتفعة جداً. وهذه كانت حالـــة "اشراق السويدة" الجارية السوداء التي اشتهرت في الأندلس في القرن العاشر الميلادي. بتضلعها في النحو وعلم العروض.

وكما حدث بالنسبة إلى العبيد المعتوقين في الامبراطورية الرومانيـة، والمخصيين في الامبراطورية البيزنطية، فإن الشخص الذي كان عبـداً فـي السابق، كثيراً ما يلعب دوراً خطيراً في الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية في العالم الإسلامي. فقد ظهر الرقيق العسكري بشكل واسع في القرن التاسـع فكان حرس الملوك والأمراء يتكون أساساً من العبيد الأرقاء.

واتخذ أحمد بن طولون في الفسطاط في القرن التاسع الميلادي ٢٤ ألفاً من الأتراك و٤٠ ألفاً من السود، وأما خلفاء بني أمية في قرطبة، فقـد كـانوا يملكون عشرة آلاف عبد، وهذا الحرس الذي يتولى قيادته ضـباط يختـارون بعناية من المعتوقين كان دائماً يقوم بدور على درجة كبيرة من الأهميـة فـي الحياة العامة.

والجدير بالذكر ان سكان العالم الاسلامي ما كانوا يبيعون ولا يشترون عبيداً، وبعد مرحلة الفتوحات، لم يكن يوجد في داخل الحدود الاسلامية سـوى مسلمين وذميين تحميهم الشريعة الاسلامية: اليهود والمسيحيون وأتباع الديانـة الزرادشتية وهذه الفئات جميعاً يحرم الاسلام استعباد أفرادها إذا استثنينا حالات نادرة. ونتيجة لهذه الوضعية، فإن العالم الاسلامي في العصر العباسـي كـان يحتاج إلى استيراد العبيد من البلدان الواقعة خارج حدوده إذ لم يقع فـي يـد المسلمين أسرى في الحرب.

وهكذا نجد ثلاثة بلدان، أو مناطق، هي التي توفر الرقيق، وهي: بـلاد الصقالبة ، وهي بلاد الغابات الواسعة التي تمتد في أوروبا الوسـطى وبـلاد الأتراك، أو تركستان، أي سهوب آسيا الوسطى، وأخيراً، بلاد السودان التـي تمتد على حافات الأدغال الافريقية. لذلك فإن التجارة في الرقيق كانت من أهم القطاعات التجارية في العالم الاسلامي في هذا العصر.

وكانت المهمة الأولى التي تناط بالعبيد الصقالبة والأتراك في العالم الاسلامي، هي تشكيل حرس الأمراء والملوك، وكذلك ترى أن الخلافة العباسية التي ولدت في خراسان، قد اتجهت إلى الاعتماد كثيراً على المماليك. ويكفي لكي ندرك أهمية هذا الاعتماد، أن نعرف ان الخليفة المعتصم العباسي (٨٢٤ – ٨٣٣ م) كان لديه عدد ضخم من العبيد الأتراك وهذا الحرس الضخم سيقوم بكثير من الاضطرابات في بغداد، الأمر الذي حمل المعتصم على بناء "سر من رأى" واتخاذها عاصمة لملكه، عوضاً عن بغداد، وبعد ذلك، سيوالي العنصر التركي توغله في أجهزة الدولة باستمرار. فإن الضباط من العبيد المعتوقين، سيقوى نفوذهم ويزداد سلطانهم، بعد ما يصبحون قواداً للجيش أو للحرس الملكي، بل وملوكاً في بعض الأحيان، مثل ابن طولون في مصر.

فهؤلاء الضباط الأتراك هم الذين ألقت الأقدار في أيديهم مفاتيح الحل والعقد في الخلافة الاسلامية، وكانت سبب عودة الخليفة إلى بغداد في سنة ٨٩٢ ميلادية رغبة المعتصم في التخلص من الأتراك الذين بسطوا نفوذهم على "سر من رأى".

وهذا التوغل التركي في الجيش والادارة، كان من العوامل التي سهلت انتشار الدين الإسلامي في بلاد الترك التي بقيت خارج حدود الخلافة الاسلامية، وهيأت الأسباب لقيام الامبراطورية الاسلامية. فبعد الفتوحات التي قام بها الأتراك في القرن الحادي عشر الميلادي، وبعد القرن الثالث عشر الميلادي، سيبلغ المماليك الذين استولوا على الحكم في مصر، أوج سلطانهم، ويصبح معظم العالم الاسلامي خاضعاً لحكم الحرس التركي، في العصر المملوكي الذي ورث الدولة الأيوبية.

والواقع أن الرق كان من أهم العوامل في الحياة الاقتصادية في العصر العباسي. فإن تدفق العبيد يسمح بشن الحرب ويساعد على استمرار تدفق

التبادل التجاري وتوسيع هذا النشاط، ولكن ابتداء من القرن الحادي عشر، أخذ الرقيق يقل حيث انتهى عهد الفتوحات الكبرى، والصقالبة الذين اعتنقوا المسيحية كانوا لا يباعون للمسلمين. وأما الأتراك الذين اعتنقوا الدين الاسلامي، فقد أصبحوا غير قابلين للاسترقاق. ومن ثم، فلم يبق سوى السود. ولكن حتى في هذه المناطق، تقلصت الأراضي التي توفر الرقيق نتيجة لانتشار الاسلام في إفريقيا السوداء.

الإنتاج الزراعي والصناعي

إلى ذلك يمكن لنا أن نذكر أن الانتاج الزراعي والصناعي في دار الاسلام خلال الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلادي، كان ينطوي على عوامل القوة وعوامل الضعف في الوقت نفسه. فأما عوامل القوة، فمرجعها إلى الفترة الزمنية نفسها. فإن قواعد سيطرة العالم الاسلامي الاقتصادية، تقوم في المقام الأول على التركة الايجابية التي ورثها عن الحضارات القديمة التي اعتمد الاسلام طرقها التقنية وحسنها. وفي الوقت نفسه استطاع الاسلام تفادي آثار النواحي السلبية في تلك الحضارات.

وكذلك تمكن العالم الاسلامي بفضل وجود نظم للتجارة مع البلدان البعيدة، لتموينه ببعض المنتجات، وبفضل وجود شبكة من المدن التي تحول فيها تلك المنتجات، من الحصول على المواد التي لا يملكها أو التي لم يعد يملكها بسبب الافراط في استغلالها في عهود الحضارات القديمة التي كانت تبذر المواد الأولية.

ونواحي الضعف في العالم الاسلامي، مرجعها بالضبط الى النقص في موارده الخاصة، ولا سيما من الخشب والمعادن والمياه، فإن المناطق التي يشملها الري، لا يمكن توسيعها إلى غير نهاية. وضيق هذه المناطق يحد من قاعدة النباتات الغذائية الشرقية. وكذلك كانت قوة الاسلام الاقتصادية معلقة

على صيانة شبكة الري وشبكة الطرق التي يتدفق منها الذهب، وعلى ازدهار العمران في المدن.

النتائج التي ترتبت على انتقال الحكم إلى بني العباس

ترتب على انتقال الحكم إلى بني العباس النتائج التالية:

أولا - نقل العاصمة من الشام إلى العراق وانتصار أهل العراق على أهل الشام بعد صراع دام أكثر من قرنين.

ثانيا - انتقال النشاط التجاري إلى العراق، وربط التجارة البرية ببغداد والبحرية بالبصرة.

ثالثا - قيام صراع بين أشراف العرب وأشراف الموالي من الفرس على نيل مناصب الدولة، وإيثار الموالي بهذه المناصب.

رابعا - اشتداد مقاومة الناقمين من العلويين والخوارج وتوالي ثوراتهم على الحكم العباسي، وانشغال الدولة بقمعها مما أدى:

ا - إلى توقف الفتوحات وتحول الدولة العباسية من موقف الهجوم - وهو موقف الدولة الأموية - إلى موقف الدفاع، واعتبار الحدود التي وصل إليها الأمويون في فتوحاتهم، حدودا نهائية والوقوف عندها والاكتفاء بالدفاع عنها.

ب - عجز الدولة عن ضبط الحكم في الولايات الإفريقية، مما اضطرها إلى السكوت والاعتراف بحالة راهنة قضت بانتزاع بعض الأقاليم من سيادة الدولة، كما فعل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي الملقب بالداخل، حين انتزع الأندلس سنة ١٣٨هـ وأقام فيها إمارة مستقلة تحولت إلى خلافة سنة ٣٠٠هـ في عهد عبد الرحمن الناصر وكما فعل إدريس الأول، بعد نجاته في وقعة (فخ) سنة ١٦٩هـ، وإقامته في المغرب دولة علوية مستقلة، كذلك أدى اختلال الأمور في المغرب الأدنى (تونس) إلى تولية إبراهيم بن الأغلب عليه ومنحه الاستقلال الذاتي سنة ١٨٤هـ، وإنشاء دولة بني الأغلب،

لتحول دون امتداد دولة الأدارسة نحو المشرق. وإلى جانب هذه الدول المستقلة التي انفصلت سياسيا وإداريا عن دولة بني العباس، نشأت في إفريقية إمارات مستقلة كأمارة بني مدرار التي أنشأها في (سجلماسة) أبو القاسم سمغو سنة ١٥٥هـ، والإمارة الرستمية التي أنشأها عبد الرحمن بن رستم في (تاهرت) سنة ١٦٠هـ، وكانت كلا الإمارتين تدينان بمذهب الخوارج.

خامسا - تخصيص بعض الولاة بإقليم من أقاليم الدولة استقلالا، مكافأة لهم لقيامهم بخدمة الدولة، كما فعل المأمون بتخصيص طاهر بن الحسين بإقليم خراسان إمرة مستقلة يتوارثها أبناؤه من بعده، وذلك مكافأة له للتغلب على أخيه الأمين في حصاره لبغداد والفوز بقتله وحمل رأسه إليه.

نظام الحكم في العهد العباسي

أولاً الوزير: والوزارة لم تكن معروفة بهذا الاسم في عهد الدولة الأموية وأول من سمي بها في هذا العهد أبي العباس السفاح أبو سلمة الخلال شيخ الدعوة بالكوفة فقد كان يعرف بوزير آل محمد وأصله مولى لبني الحارث بن كعب وكان سمحاً كريماً مطعاماً كثير البذل مشغوفاً بالتنوف في السلاح والدواب فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل والتفسير حاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة.

ثانياً الحاجب: وهو موظف كبير لا يَمْثُل أحد بين يدي الخل يفة إلا بإذنه وقد وجد الحاجب في عهد بني أمية وقد أحدثوه لما خشوا على أنفسهم من الفتاكين بعد حادثة ال خوارج مع علي وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان.

ثالثاً الكاتب: وهو الذي يتولى مخاط بة من بعد عن الحضرة من الملوك والأمراء وغيرهم وكثيراً ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الك تابة.

رابعاً صاحب الشرط: وهو المحافظ على الأمن وكان المنصور يختار صاحب الشرط آمن الرجال وأشدهم وكان له سلطان عظيم على المريبين والجناة.

خامساً القاضي: وكان ينظر في قضايا مدينة المنصور وحدها ولم يكن له سلطان على قضاة الأقاليم لأن منصب قاضي القضاة لم يكن أنشيء بعد.

الجيش:

أهم ما تظهر به الدولة جيشها الذي يذود عن حياضها ويحمي بيضتها وقد كان الجيش لعهد الدولة الأموية عربياً محضاً جنوده وقواده فلما جاءت الدولة العباسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع إليهم أكبر الفضل في ثل عرش الدولة الأموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحمايتها لذلك كان جيش الديوان في أول عهد العباسيين مؤلفاً من فريقين.

الأول: الجيوش الخراسانية

الثاني: الجيوش العربية. وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموا لي.

وكان أكبر القواد المعروفين في أول عهد الدولة أبو مسلم الخراساني لجيوش المشرق ال خراسانية.

وعبد الله بن علي لجيوش المغرب وأعظمها عربي من الجزيرة والشام.

ومن مشهوري قواده العرب معن بن زائدة الشيباني وهو قائد شجاع كان في أيام بني أمية متنقلاً في الولاي ات.

حاضرة الخلافة: (مدينة السلام- بغداد)

وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان ولكل منها باب دون باب بينهم دهليز ورحبة تدخل إلى الفصيل الدائر بين السورين فالأول باب الفصيل والثاني باب المدينة فإذا دخل من باب خراسان عطف على يساره في دهليز معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون المدخل إليه في عرضه والمخرج منه وطوله يخرج إلى رحبة مادة إلى الباب ال ثاني طولها٦٠ ذراعاً وعرضها٤٠ ولها في جنبتيها حائطان من الباب الأول إلى الباب الثاني في صدره ذى الرحبة في طولها الباب الثاني وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله في جنبتي بابان إلى الفصيلين.

والأبواب الأربعة على صورة واحدة في الأبواب والفصيلان والرحاب والطاقات. ثم ال باب الثاني وهو باب المدينة وعليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير إلى دهليز أزج معقود بالآجر وا لجص طوله٢٠ ذراعاً وعرضه١٢ وعلى كل أزج من آراج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور

يرتقى إليه منها، على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمكها ٥٠ ذراعاً مزخرفة وعلى رأس كل قبة منها تمثال تدي ره الريح لا يشبه نظائره.

وعلي كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان.

البيت العباسي وشخصياته المميزة

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقي عقبه من كثير من أولاده، ولكن العدد الأكبر والجمهور العظيم كان من ولديه العباس وأبي طالب.

العباس بن عبد المطلب:

أمه نتيلة بنت جناب بن كليب من النمر بن قاسط إحدى قبائل ربيعة بن نزار، ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنين، فهو أسن من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بثلاث سنين.

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده وكان يكنى، وعبد اللّه وعبيد اللّه وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة، وأمهم جميعاً لبابة بنت الحارث بن حزن من بني هلال بن عامر من قيس عيلان.

وليس للفضل وعبد الرحمن وقثم وكثير وتمام عقب. وعقب العباس من سواهم، ولا سيما من عبد اللّه فإنه هو الذي انتشر منه عقب العباس، وهو جد الخلفاء العباسيين.

عبد اللّه بن العباس:

هو ثاني ولد العباس بن عبد المطلب. ولد قبل الهجرة بسنتين، فكانت سنة حين توفي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ثلاث عشرة سنة.

وعبد اللّه هو الذي نما من نسله البيت العباسي لأن إخوته لم يكن لهم نسل باق.

وعقب عبد اللّه الذي نما إنما هو ولده علي بن عبد اللّه بن ال عباس

علي بن عبد الله بن العباس:

ولد ليلة قتل علي بن أبي طالب سنة ٤٠ من الهجرة، فسمي باسمه وكني بكنيته أبي الحسن. وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحميمة بال شراة وهي صقع بالشام في طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشويك وهو من إقليم البلقاء فأقام بها وفي ها ولد أكثر أولاده، وكانت وفاته سنة١١٧هـ.

وأعقب على اثنين وعشرين ولداً ذكراً وإحدى عشرة أنثى. وذكور أولاده هم محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح أحمد وبشر ومبشر وإسماعيل وعبد الصمد وعبد الله الأكبر وعبيد الله وعبد الملك وعثمان وعبد الرحمن وعبد الله الأصغر ويحيى وإسحاق ويعق وب وعبد العزيز وإسماعيل الأصغر وعبد الله الأوسط. ستة منهم لا عقب لهم والباقون أعقبوا كثيراً. ومنهم انتشر البيت العباسي وكثر جداً وبيت الخلافة في محمد أكبر أولاده.

محمد بن علي:

هو والد إبراهيم الإمام وأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية. وهو الذي ابتدأت الدعوة على يديه، وكان ذلك في حياة أبيه علي، ولكن لم يكن لأبيه ذكر في هذه الدعوة.

حروب وفتوحات الدولة العباسية

في بلاد الهند :

لما قامت الدولة العباسية ولى أبو جعفر المنصور هشام بن عمر التغلبي بلاد السند .. وفي عهده فتحت كشمير وهدم معبد "بوذا" وبني في موضعه مسجد .. وقد تقدمت هذه البلاد في عهد هشام التغلبي واستقر بها الأمن وتوطدت أركانه .. وفي عهد الخليفة المهدي غزا المسلمون بلاد الهند ٩٠١ هـ وحاصروا مدينة "باربد" وضربوها بالمنجنيق وفتحوها عنوة على أن هذه الغزوة كانت كارثة على جند العباسيين، فقد فشا الموت فيهم وقضى على عدد كبير من المقاتلين، ثم دمرت الزوابع سفنهم في الخليج العربي فغرق كثير من الجند .. وفي عهد الخليفة المأمون توسعت فتوحات المسلمين في السند والهند، وفي عهد المعتصم انتشر الإسلام في البلاد الواقعة بين كشمير وكابول والملتان .

مع البيزنطيين :

لم تنقطع الحرب بين العرب والروم منذ ظهور الإسلام. فلما انتقل الحكم إلى العباسيين تغيرت وجهة الحرب بينهما وأصبحت عبارة عن غارات، الغرض منها الهدم والتخريب وإتلاف النفس والمال وهذا ما كان يخالف ما كانت عليه الحال أيام الأمويين الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين بغية احتلال القسطنطينية وبقيت الحرب بين العباسيين والبيزنطيين تشتعل من حين إلى آخر حتى سنة ٥٥١هـ، حين طلب الإمبراطور قسطنطين الرابع الصلح مع العباسيين على أن يؤدي لهم جزية سنوية .

وفي سنة ٩٥١ هـ خرج الخليفة المهدي على رأس جيش كثيف لغزو بلاد الروم، ووصل إلى "البردان" وعسكر به، وأرسل العباس بن محمد فبلغ أنقرة، وفي سنة ٥٦١ هـ أعاد المهدي الكرة على البلاد البيزنطية فجمع

جيشاً كثيفاً وعبر الفرات وجعل عليه ابنه هارون فوصل هذا الجيش إلى سواحل البوسفور وأرغم الملكة "ايرين" أرملة "ليو" الرابع، وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنوية، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء في الطريق عند عودتهم إلى بلادهم، وأن تسلم أسرى المسلمين وانتهت هذه الغزوة بهدنة بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات ولما تولى الرشيد الخلافة سار بنفسه سنة ١٨١ هـ على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغرى، فانتصر على البيزنطيين في معارك كثيرة وظل يتابع فتوحه حتى وصل إلى القسطنطينية فسارعت الامبراطورة "ايرين" إلى طلب الهدنة مقابل دفع الجزية السابق ذكرها غير أن نقفور الذي اعتلى العرش بن ايرين أرسل إلى الرشيد سنة ٧٨١ هـ كتاباً ينتقض فيه الهدنة، ويلح في استرداد الجزية من جديد. ولم يقتصر الرشيد في حروبه مع الروم على آسيا الصغرى، بل تعداها إلى البحر المتوسط ففي سنة ١٩٠ هـ غزا جزيرة قبرص وأسر منها عدداً كبيراً من بينهم أسقفها .

أما عصر المأمون فقد اكتفى بتشجيع توماس الصقلبي الثائر على الامبراطور "تيوفيليوس"، وعمل على تتويجه امبراطوراً على الدولة البيزنطية نفسها ولكن سرعان ما اكتشفت حملة توماس ولم يتم له ما أراد وقد اتبع الامبراطور البيزنطي السياسة نفسها مع الخليفة العباسي، فجل بلاد الروم موئلاً للخرمية أتباع بابك الخرمي الفارسي الذي ثار سنة ١٠٢ هـ على المأمون وقد استطاع المعتصم القضاء على بابك، ثم تفرغ لمحاربة الروم، فسار من فوره إلى أنقرة في جيش ضخم، وهزم الامبراطور البيزنطي واستولى على أنقرة. ثم تابع المسير حتى وصل عمورية حيث انتصر على البيزنطيين سنة ٣٢٢ هـ، واقتحم عمورية وخربها وعاد إلى سامراء حيث استقبل استقبالاً باهراً وفي هذه المناسبة نظم أبو تمام قصيدة مشهورة جاء فيها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف ... في متونهم جلاء الشك والريب

فيما بعد ساءت الحال في الدولة العباسية، فاستبد الأتراك والبويهيون بالسلطة دون الخلفاء فوجد البيزنطيون في ذلك فرصة سانحة للإغارة على المناطق الخاضعة للدولة العباسية فقد استولوا على ساحل مصر سنة ٨٣٢ هـ، كما أغاروا في زمن المتوكل على مدينة "عين زربا "سنة ١٤٢ هـ، وعلى الأراضي الواقعة شمالي العراق فبلغوا آمد وأسروا كثيراً من المسلمين ولكن الخليفة المتوكل عول على الانتقام، فاستولى على بعض المناطق البيزنطية جنوبي آسيا الصغرى وأسر أحد البطارقة، واستولى على مدينة لؤلؤة ومنذ عهد الخليفة المعتمد كانت الخلافة العباسية قد تقلصت إلى حدود الجزيرة والعراق، وتجدد النزاع بين المسلمين والروم الذين راحوا يعبثون ببعض بلاد الدولة العباسية .. وكانت شوكة الدولة البيزنطية قد قويت وانتشر فيها الأمن منذ اعتلاء باسيل الأول العرش سنة ٣٥٢ هـ) ٧٦٨م، فتمكن من احراز النصر على بعض أمراء المسلمين، ساعده على ذلك ضعف الخلفاء أو استبداد القوط بهم وثورة الجند عليهم .

الحروب في مصر :

كان من أثر تحول الخلافة من الأمويين إلى العباسيين أن قامت حضارة جديدة حلت مكان الفسطاط، هي العسكر وقد قام الجند العرب في مصر بدور مهم في شؤون الدولة السياسي. فقد اشتركوا في كثير من الفتن والثورات، مثل فتنة محمد النفس الزكية في عهد المنصور وعاونوا "دحية" في خروجه على العباسيين في الصعيد، في عهد الخليفة المهدي كذلك كان للجند العرب في مصر نصيب كبير في الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون وغدا اشتراك هؤلاء الجند في الثورات مألوفاً حتى في الحالات التي لم يكن ثمة ما يدعو إلى الاشتراك فيها وقد دعت هذه الحال الخليفة المعتصم سنة ٨١٢ هـ

إلى أن يسقط أسماء الجند العرب في مصر من ديوان العطاء وبذلك اندمج العرب بالمصريين فاحترفوا الزراعة والصناعة وغيرها، وبذلك قضي تماماً على العصبيات العربية والشعوبيات في مصر وهذا أمر لم يحدث في أي اقليم آخر من الأقاليم التابعة للدولة الإسلامية .

في بلاد النوبة :

اتصل العرب اتصالاً وثيقاً بالبجة في القرن الثاني للهجرة عن طريق البحر الأحمر، وعن طريق وادي النيل، وخاصة اقليم أسوان، بعد أن عقد مع ابن الحبحاب معاهدة هدنة وحسن جوار غير أن البجة لم يحافظوا على العهد الذي قطعوه على أنفسهم مه ابن الحبحاب، وكثرت غاراتهم على جهات أسوان عهد الخليفة المأمون فقامت بين الفريقين مواقع عدة انتهت بإبرام هدنة جديدة، كان من أهم شروطها أن تكون بلاد البجة من حدود أسوان، وعلى أن تكون منطقة السودان ملكاً للخليفة العباسي، وأن يدفع ملك البجة كل عام الخرج، وهو مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وأن يحترم البجة الإسلام ولا يمنعوا أحداً كل عام من المسلمين الدخول في بلادهم للتجارة، وإذا نزل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجاراً فلا يظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال .

في بلاد المغرب :

غدت أفريقيا مسرحاً للفتن والقلاقل في العصر العباسي، وذلك لبعدها عن السلطة المركزية في بغداد، ولجهل البربر في ذلك العصر، وعدم استعدادهم لقبول الحضارة الإسلامية وبغضهم ولاتهم من العرب وفرضهم الضرائب الفادحة عليهم وقد ساعد هذا الواقع على قيام دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى سنة ٢٧١ هـ، كما ساعد الأغالبة في تونس على تأسيس دولتهم، وكان الرشيد قد أقطع ابراهيم بن الأغلب تونس سنة ١٨٤ هـ .

أما عن جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الإسلامية، فكان من آثاره أن السلام لم يتوطد بين البربر والعرب النازلين في بلادهم منذ أن امتدت الفتوحات الإسلامية إلى هذه البلاد وهذا يفسر لنا انتشار مذهبي الخوارج والشيعة في بلاد المغرب، وقيام البربر في وجه العباسيين بين الحين والآخر. وأما عن بغض البربر لولاتهم من العرب فيرجع إلى فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل الأهلين .. والحق أن قيام الخوارج من البربر في وجه العباسيين لم يكن خروجاً على الدين بل كان خروجاً على السلطة الحاكمة لظلم الولاة لهم وفرضهم عليهم الضرائب الفادحة .

استمرت قبائل البربر في أفريقيا تناوئ سلطان العباسيين، حتى بعث إليهم الرشيد سنة ١٨١ هـ هرثمة بن أعين على رأس جيش كثيف استطاع أن يضعف قوتهم على أن هرثمة رأى بثاقب نظره وطول خبرته تأصل العداء في نفوس البربر، فأرسل إلى الرشيد يعتذر عن البقاء بالمغرب بعد أن وليها سنتين ونصف السنة .. ثم ولى الرشيد محمد بن مقاتل، فأساء معاملة الأهلين، فتجددت ثورات البربر والعرب، وتمكن البربر من دخول القيروان .. إلا أن ابراهيم بن الأغلب تمكن من طردهم، وأعاد إلى الرشيد ولايته .. وكان من أثر العداء الذي اضمره البربر للأمويين والعباسيين، وانضمام بعض العرب إلى مذهب الخارجين أن قامت الفتن والقلاقل في هذه البلاد، وعمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية، فتأسست ولايات من البربر، على يد زعماء من العرب، استقلت استقلالاً يكاد يكون تاماً ومن الولايات التي استقلت ولاية تاهوت وولاية سلجمانة (تافيلالت الحالية) التي أسسها بنو مدرار، وولاية تلمسان التي أسسها الصنهاجيون، وولاية برغواطة في تامسنا (الشاوية الحالية) على ساحل المحيط الأطلسي، ودولة الأغالبة في تونس، ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى .

في بلاد الأندلس :

تقلص سلطان العباسيين عن بلاد الأندلس بعد أن أفلت عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وانتقل إلى الأندلس ولكن أبا جعفر المنصور لم يهدأ باله من ناحية عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) ، فعمل على القضاء عليه، وأرسل إليه العلاء بن مغيث ولكن الداخل هزمه وقتله واحتز رأسه وأرسله إلى المنصور .. فغير المنصور بعد ذلك سياسته مع الداخل وعمل على استمالته، وكثيراً ما كان يظهر اعجابه بشخصيته، وقد لقبه بصقر قريش .. وكان الـ .يفة المهدي يضمر العداء للداخل فأرسل من يحرض عبدالرحمن بن حبيب الفهري عليه فراح يحث الناس على الدخول في طاعة العباسيين، واتصل بسليمان بن يقظان من أجل ذلك ولكن سليمان خذله وحاربه وقضى عليه وبذلك لم تنجح سياسة المهدي في إعادة الأندلس إلى الدولة العباسية .. وقد حكم عبد الرحمن الداخل ثلاثاً وثلاثين سنة، وعاصر من الخلفاء العباسيين: المنصور والمهدي والهادي والرشيد .

العلوم التجريبية وحركة الترجمة

العلوم التجريبية مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية، فقد رأينا في القرون الهجرية الأولى اهتماماً كبيراً بتلك العلوم، حيث أسهم المسلمون بقسط وافر في ذلك، فصنفوا الكتب المختلفة، وأحيوا كتباً قديمة، كاد النسيان أن يضيعها، وطوروها، ونقدوا غثها، وأفادوا من سمينها.

وتعد حركة الترجمة للكتب القديمة التي لم تكن بلسان عربي على ذلك اللسان مدخلاً طبيعياً للحديث عن إسهامات المسلمين في مجال العلوم التجريبية، حيث كانت أغلب هذه الترجمات لا تتعدى ذلك المجال.

ولنا أن نقف وقفة مع هذا الموضوع، لأهميته كمدخل للحديث عن الجهود التي قدمها المسلمون بعد حركة الترجمة التي بدأت منذ القرن الهجري الأول حتى منتصف القرن الرابع الهجري.

وقد شاع بين المثقفين أن حركة الترجمة تبدأ في عهد الرشيد الخليفة العباسي، والحق أن حركة الترجمة بدأت منذ العصر الأموي، ومرت بمراحل أربعة نوجز الحديث عنها فيما يلي:

الترجمة في العصر الأموي:

ويعد ذلك العصر أول محاولة فعلية لترجمة الكتب اليونانية وغيرها، حيث ترجمة كتب في الكيمياء والطب فقط حيث دعت الحاجة في ذلك العصر إليها.

وإذا كنا نقول: إن هذه أول محاولة فعلية للترجمة فذلك لأنه قد حدثت محاولة سابقة زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ حيث أرسل إليه(سعد بن أبي وقاص)ﷺ يستئزنه في ترجمة كتب الفرس التي حصل عليها المسلمون أبان الفتح الإسلامي لبلادهم، وقد رفض أمير المؤمنين عمر ذلك، وأمر بطرح الكتاب في الماء. وقال: (إن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه) .

وأول من اهتم من الأمويين بحركة الترجمة هو الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، حيث أمر بترجمة كتب الطب والكيمياء. وكان خالد قد سافر إلى مصر عدة مرات شغف فيها بالكيمياء والأساطير التي كانت تكتنفها من إمكانية تحويل المعادن إلى ذهب، فأمر بترجمة بعض كتب الكيمياء التي كانت معروفة في مدرسة الإسكندرية. ويقول ابن النديم في الفهرست: (كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم، وهو الذي أمر بنقل الكتب من الصنعة- أي الكيمياء- من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة) .

ويأتي بعد خالد بن يزيد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذي أمر الطبيب البصري "ماسرجويه" بترجمة كتاب(أهرن القس) في الطب. ولا نكاد نجد في العصر الأموي سوى المحاولتين السابقتين. ولعل سبب قلة الكتب المترجمة في العصر الأموي يرجع إلى قلة اهتمام الخلفاء بهذا الجانب. فلما كان العصر العباسي الأول ظهر الاهتمام بالترجمة منذ عصر الخليفة الثاني(المنصور).

الترجمة زمن العباسيين :

تطورت حركة الترجمة قليلا في العصر الأموي ، من حيث المادة المترجمة، أو عدد وثقافتهم، أو مجموع ما ترجم، فضلاً عن الدعم المادي والمعنوي للنقلة من القائمين على هذا الأمر. ففي عصر المنصور ترجمة كتب: " كليلة ودمنة " و" السند هند "- وهو مذهب في علم النجوم- ترجمت في اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والسنسكريتية إلى اللغة العربية، وذلك في علوم: النجوم، والحساب، والطب، والفلسفة، وغير ذلك. فلما كان العصر العباسي سارت الترجمة تتقدم شيئا فشيئا ، وقد اشتهر في عصر المنصور النقلة: نوبخت المجوسي، وإبراهيم الفزارى المنجم، وعلي بن عيسى

الإسطرلابي، وعبدالله بن المقفع، وأبو يحيى البطريق، والطبيب جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع .

ثم ركدت حركة الترجمة زمني المهدي والهادي، لتبدأ في الانتعاش منذ زمن الرشيد الذي اهتم بذلك الأمر اهتماماً بالغاً، لما اشتهر به من حبه للعلوم والآداب والفنون والقائمين بها، والتشجيع المادي والمعنوي من اجل إنعاش الحركة الفكرية. فقد أرسل الرشيد الرسل إلى إمبراطورية الروم لشراء المخطوطات اليونانية، كما اهتم البرامكة في عصره بترجمة الكتب الفارسية، وللبرامكة أثرهم الكبير في العناية بترجمة الكتب اليونانية كذلك، والبذل في شأنها. وقد أعاد يحيى بن خالد البرمكي ترجمة كتب المجسطي لبطليموس في علم الفلك، وكان هذا الكتاب قد ترجم زمن المنصور، لكن ترجمته لم ترضي البرمكي. وكان لانتشار صناعة الورق في ذلك العصر أثره الكبير في ازدهار حركة الترجمة، وغيرها من أعمال التأليف في هذا العصر.

وتعد حركة الترجمة في ذلك العصر تمهيداً طبيعياً لعصر المأمون الذي أصبح أكثر تطوراً ودقة في هذا المجال.

الترجمة في عصر المأمون :

برز المأمون جميع الخلفاء العباسيين عناية لحركة الترجمة التي بلغة في عصره أقصى درجات التفنن في نقل تراث الأمم الأخرى إلى العربية. وبرز في عصر المأمون جماعة من النقلة من أشهرهم: حنين بن إسحاق، ويوحنا بن ماسوية، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وعمر بن الفرخان الطبري.

وقد دخل بغداد مترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس، فيهم النصارى(النساطرة واليعاقبة) ، والماجوس، والصابئة، والبراهمة(الكهنة الهنود) ، والروم وترجم هؤلاء تراثاً كثيراً من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها. وكثر بسبب ذلك الوراقون، وباعة الكتب، وانتشرت مجالس الأدب

والمناظرة، وانشغل الناس بالبحث والمطالعة وصارت فترت حياة المأمون نهضة علمية رفيعة المستوى.

حركة الترجمة بعد عصر المأمون:

تراوحت حركة الترجمة بين الضعف والقوة بعد وفاة المأمون، فقد كان المعتصم ومن بعده ابنه الواثق، غير مؤهلين للاضطلاع بمهام هذه الحركة، فلما تولى المتوكل الخلافة أعاد إلى الحركة العلمية بعامة والترجمة بصفة خاصة حيويتها، ثم عادة تلك الحركة إلى الفتور مرة أخرى ، لأسباب كثيرة، لعل من أبرزها ضعف الخلفاء، وتسلط جماعة من الأتراك عليهم .

ومع بداية القرن الرابع الهجري عادة الحركة من جديد إلى سابق عهدها من النشاط والحيوية، وظهرت في هذه الفترة أسماء عديدة مثل: ثابت بن قرة، وابنه سنان، ومتي بن يونس، ويحيى بن عدي، وقسطا بن لوقا البعلبكي، وابن زرعة. وهؤلاء كانوا من أشهر النقلة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.

عوامل ازدهار الترجمة :

ازدهرت حركة الترجمة في العالم الإسلامي، وبخاصة في المرحلتين الثانية والثالثة، فما العوامل التي أدت إلى ذلك الازدهار؟

وللإجابة على هذا التساؤل، يمكن القول: إن هناك عوامل ذاتية ترجع إلى طبيعة اللغة، والحاجة إلى التراث، وروح الإسلام الدافعة إلى العلم، وظهور ما يسهم في الازدهار مثل صناعة الورق. وهناك عوامل خارجية، مثل رعاية الخلفاء والوزراء والكبراء والعلماء للترجمة، فضلاً ظهور حركة الشعوبية، وظهور الفرق الإسلامية. وفيما يلي نلقي الضوء السريع على بعض هذه العوامل، ونبدأ ذلك بالعوامل الخارجية:

(١) اهتمام الخلفاء بالترجمة، ورعايتهم لها :اهتم الخلفاء بالترجمة اهتماماً بالغاً، نشأ ذلك من طبيعة توجههم. ومن أشهر ذلك اهتموا بالترجمة

ورأعوها الخليفة العباسي المنصور، الذي كان يميل علـــى التـــنجم، ويقـــرب المنجمين، ويطالبهم بترجمة الكتب في الفلك والعلوم. وكـــذلك كـــان الخليفـــة هارون الرشيد يراعي الترجمة بنفسه أو عن طريق البرامكـــة الـــذين كـــانوا يهتمون بها ويغدقون الأموال عليها، ويشيرون على الرشيد بذلك. أما الخليفـــة المأمون فكان صاحب القدح المعلى في رعاية الترجمة والاهتمام بها، وكـــان المأمون محباً للعلم بصفة عامة، مقرباً لأهله، باحثاً عن كل سبيل يؤخـــذ منـــه علماً،وهو صاحب الكلمة المشهورة(ما رأيت ألذ من النظر في عقول الرجال). وكان المأمون يستخدم علاقته الخارجية بالدولة الرومية في سبيل تحقيق رغبته ففي حالة السلم التي كانت بين الدولتين الإسلامية والروميـــة أرســـل الخليفـــة المأمون إلى ملك الروم، يطلب منه كتب الحكمة مـــن كـــلام أرســـطوطاليس، فطلبها ملك الروم فلم يجد لها أثراً في بلاده، فاغتم لذلك وقال: يطلب مني ملك المسلمين علم سلفي من يونان فلا أجده؟ أي عذر يكون لي؟ أم أي قيمة تبقـــى لهذه الفرقة- الرومية- عند المسلمين؟ وأخذ في السؤال والبحث إلى أن حضر إليه أحد الرهبان وأخبره بأن كتب اليونان في موضع.(الهيكل) وهو بناء قـــديم من المرمر والصخور والعظام به من الكتب القديمة ما يحمل على عدة أحمال، وكانت يونان تتعبد فيه قبل استقرار ملة المسيح في البلاد، ثـــم أغلـــق وكـــان الملوك يقفلون عليه، كل ملك يزيد في زمنه قفلاً حتى لا يقال: أنه احتاج فـــي تدبير ملكه إلى ما في الهيكل ، ثم جمع ملك الروم مقدمي دولته، واستشـــارهم في إرسال هذه الكتب للمأمون، فقال له الراهب: سيرها، فإنك تثاب عليه، فإنها ما دخلت ملة إلا وزلزلت قواعدها، فسار الإمبراطور إلـــى البيـــت وفتحـــه، وأرسل خمسة أحمال منها إلى المأمون الذي أحضر المترجمين فقاموا بترجمة

هذه الكتب من الرومية إلى العربية، وأغدق عليهم المأمون العطايا(راجع تاريخ الحكماء للقفطي:٢٩-٣١) (*) .

وهكذا كان المأمون محباً للعلم، باذلاً في سبيله، ولم يكن في الخلفاء من يدانيه في هذه المنزلة. وكان الخليفة المتوكل يراعي حركة الترجمة ويغدق على المترجمين، وعلى رأسهم حنين بن إسحاق، كما جدد المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد، ويسر سبل الترجمة.

(٢) اهتمام الوزراء وكبار شخصيات الدولة بالترجمة: كان البرامكة في عهد الرشيد يهتمون بالترجمة، ومن مظاهر ذلك أرسل يحيي بن خالد البرمكي الرسل إلى بلاد الروم، ليطلبوا من ملكهم أن يستخرج ما عندهم من كتب اليونان لينظر المسلمون فيها، فيأخذوا ما يحبون، ويعيدوا الباقي، وقد رضي ملك الروم بذلك بعد استشارة بطارقته، كما أرسل يحيي بن خالد البرمكي إلى بلاد الفرس فجئ بكتب كثيرة ومن أشهر ما ترجمه البرامكة كتب " كليلة ودمنة " . وكما اهتم البرامكة في عصر الرشيد، فقد اهتم بنو موسى بن شاكر في

(*) وثمة حدث أخر في حياة المأمون يؤكد حرصه على رعاية الترجمة، والبحث في كل سبيل من أجل رعاية العلم وأهله، فقد أسر أحد تلاميذ(ليون) العالم الرياضي الذي كان يعلم الهندسة في القسطنطينية ويعيش عيشة الفاقة، وقد أظهر هذا التلميذ الأسير براعة في الهندسة، وعرف أمره فلما سئل عن معلمه أحي هو أم ميت؟ فأجاب: إنه حي في القسطنطينية، يعيش فقيراً، فأرسل إليه المأمون ليستقدمه، لكن ليون أبلغ أحد الموظفين الكبار بهذا، فوصل الأمر للإمبراطور، مما جعله يهتم بهذا العالم ويرفض إرساله، حتى بعد أن أرسل المأمون إلى اللإمبراطور نفسه يطلبه منه، لكن المأمون لم يسكت عند هذا الحد وإنما أرسل إليه بعض المسائل الهندسية التي أجاب عنها إجابات سديدة، وكان سلوك المأمون سبباً في إظهار هذا العالم(راجع تاريخ حضارة الإسلام لجرونباوم: ٧٨،٧٩) ونترك الخوارزمي يقول كلمته في مقدمة كتاب الجبر والمقابلة عن جهد الخليفة المأمون: (... وقد شجعني ما فضل الله به الإمام المأمون، مع الخلافة التي حاز لها إرثها، وأكرمه بلبسها، وحلاه بزينتها، من الرغبة في الأدب، وتقريب أهله، وبسط كنفه لهم، ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبهما، وتسهيل ما كان مستوعراً على أن ألفت من حساب الجبر والمقابلة، كتاباً مختصراً لطيف الحساب وجليله، لما يلزم الناس من الحاجة إليه .

عصر المأمون، بأمر الترجمة، وبذلوا أموالاً كثيرة وترجموا بأنفسهم، كما استخدموا مترجمين لمعاونتهم،ويقول بن النديم عنهم:"وهم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب، وقد أتعبوا نفوسهم فيها، فأحضروا النقلة من مختلف الأماكن" وأما محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق فكان ينفق من أجل ازدهار حركة الترجمة، حتى أنه- كما يقول ابن ابيصيبعة-: كان يقارب عطاؤه النقلة والنساخ في كل شهر ألفي دينار، ونقل باسمه كتباً عديدة .

(٣) رغبة بعض الأطباء في الحصول على الترجمات: اشتهر بعض الأطباء بالاهتمام بالتراث الطبي القديم والرغبة في التعرف عليه وترجمته، وكان من بين هؤلاء: الطبيب " يوحنا بن ماسوية " الذي ترجم باسمه عدداً كبيراً من كتب الطب، وكان حنين بن إسحاق يترجم ليوحنا كتباً كثيرة، منها كتب جالينوس. وكان يوحنا أحد الذين أسهموا في نقل المخطوطات اليونانية من القسطنطينية عن طريق البعثات التي كان يبعث بها الخليفة المأمون، وكان يوحنا يقوم بترجمة هذه المخططات بنفسه أو عن طريق غيره ويبذل لذلك المال الكثير . وكان"سلمويه بن بنان" أحد الأطباء الذين راعوا حركة الترجمة،وكان رئيس الأطباء في عصر المعتصم، وكان حنين بن إسحاق يترجم له بعض الكتب اليونانية في الطب. وقد بلغ عدد كتب جالينوس التي ترجمها حنين ليوحنا ثلاثة عشر كتاباً.

(٤) عطايا المترجمين : أسهمت العطايا التي كانت تمنح للمترجمين في إيجاد حركة قوية نحو الترجمة، مما أدى إلى ازدهارها، ويكفي أن يكون عطاء المأمون لرجل مثل حنين بن إسحاق هو أن يوضع ما ترجمه من كتب في كفه، ويوضع ما يعادلها من الذهب في الكفة الأخرى، بل إن الخلفاء كانوا يفرضون للمترجمين أرزاقاً شهرية، ويكثرون من البذل والعطاء لهؤلاء المترجمين والنقلة.

(٥) ظهور صناعة الورق : بعد أن فتح الله بلاد ما وراء النهر على المسلمين، وكان من بينها مدينة(سمرقند) التي اشتهرت بصناعة الورق، انتشرت هذه الصناعة في بقية أنحاء العالم الإسلامي . وظهرت طائفة من الوراقين، الذين يقومون بنسخ الكتب وتجليدها وتصحيحها وبيعها،وأصبح في هذا المجال عدد من العلماء يقومون بالكتابة، ويرتزقون بهذه المهنة وقد أسهمت صناعة الورق في ازدهار حركة الترجمة بشكل واسع.

(٦) ظهور الفرق الإسلامية :مع ظهور الفرق المختلفة في بعض المسائل العقدية كقضية القضاء والقدر، والجبر، والاختبار، ومحاولة كل فرقة تقديم ما يؤيد اتجاهها بالحجج العقلية، ودحض أفكار المخالفين كان الاتجاه نحو العقل والمنطق والفلسفة مما أدى إلى إنعاش حركة الترجمة، حيث ترجمت المصنفات الفلسفية اليونانية وكانت فرقة " المعتزلة " تستخدم الحجج العقلية للرد على اليهود والنصارى، وبعض الفرق المخالفة، وكانوا يرون أن اليهود والنصارى يتخذون من المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية مجالاً للجدل، فاضطر المعتزلة إلى ترجمة عدد من كتب اليونان، لتكون من وسائل الدفاع عن أفكارهم، ودحض أفكار من خالفهم.

(٧) حركة الشعوبية : كان لوجود العنصر الفارسي في الدولة الإسلامية أثره في ترجمة التراث الفارسي، وقد حاول بعض الفرس إذكاء روح العصبية، بمحاولة إظهار المجد الفارسي، ليظهروا للعرب أن الفرس أصحاب حضارة ورقي، ويحقروا بذلك من شأن العرب. وكان من مظاهر إحياء روح التعصب ظهور ما عرف في التاريخ باسم "حركة الشعوبية" وقد حاول بعض الفرس استخدام الترجمة كوسيلة لتحقيق أغراضهم، ولعل أشهر عبد الله بن المقفع الذي ترجم كتاب "كليلة ودمنة" عن الفارسية إلى العربية.

(٨) طبيعة اللغة العربية : أسهمت طبيعة اللغة العربية السهلة في ازدهار حركة الترجمة، حيث لم يجد العلماء عناء في التعبير عن أدق

الحالات، وكان لمرونة هذه اللغة وقدرتها على إبداع مترادفات، ومصطلحات جديدة أثره في الإقبال على الترجمة، ومما يشير إلى مرونة هذه اللغة وقدرتها على العطاء والتعبير العلمي الدقيق أن الذين ترجموا بعض كتب اليونان كانوا ينقلون المصطلحات اليونانية إلى العربية بألفاظها في بداية الأمر، مثل: (أنالوطيقا، وسوفسطيقا، وقاطاغورياس، وأرثماطيقا، وإبيذيميا) ولكن سرعان ما اكتشف المترجمون وزن اللغة العربية تستطيع التعبير عن هذه المصطلحات بألفاظ عربية خاصة، فاستبدلوا الكلمات السابقة بألفاظ عربية خالصة، وقالوا عنها بالترتيب (التحليل، والمغالطة، والمقولات العشر، والرياضيات الوافدة).

(٩) حب العلم والإقبال عليه : دعا الإسلام إلى العلم، وحثت آيات القرآن الكريم، وسنة الرسول ﷺ على طلبه، والإقبال عليه وبينت الفرق بين الذين لا يعلمون ، ودفعت المسلم إلى أخذ العلم من كل طريق ممكن وقد أدى ذلك إلىالبحث عن الحكمة والمعرفة، فاتجه المسلمون من بين ما اتجهوا إلىالتراث القديم وتعلموا الطب والفلسفة والفلك والرياضيات ، وترجموا كتب الأقدمين.وقد أسهم حب العلم والرغبة في تحصيله في ازدهار حركة الترجمة والبذل في سبيل نقل التراث العلمي القديم من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، ليتم النفع بها، فالحكمة ضالة، المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

طرق الترجمة :

استخدم المترجمون للتراث اليوناني والفارسي عدة طرق للحصول على الترجمة، كان أهمها أربعة :

الطريقة الأولى : الترجمة الحرفية : وكانت هذه الطريقة تجعل المترجم يهتم بنقل الألفاظ من لغة ما إلى العربية دون الاهتمام بالمعنى الإجمالي، وكان لهذه الطريقة عيوبها المختلفة، فهي تضيع جوهر المعنى، وتؤدي إلى دعم ترابط الجمل، وربما لا توجد مرادفات لكلمة ما، فتنتقل بلفظها إلى اللغة

العربية، مع تعديل طفيف يوافق النطق العربي، مثل المصطلحات(الفلسفة- الموسيقى- الجغرافيا- الإسطرلاب) . وكان يمثل هذا الإتجاه في الترجمة يوحنا بن البطريق، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي.

أما الطريقة الثانية : فكانت الترجمة بالمعنى : وهي محاولة قراءة النص الأصلي، ومعرفة مضمونه، ثم التعبير عن هذا المضمون بألفاظ عربية أصلية وقد أدت هذه الطريقة إلى حماية المعنى، والوصول إلى مضمون كاملاً، لكنها كانت تختلف من مترجم لآخر، حيث قد يعبر مترجم بألفاظ جذلة راقية، ويعبر آخر بألفاظ ركيكة غير فصيحة، ويرجع كل هذا إلى ثقافة المترجم، ومدى تبحره في اللغة، وإدراكه للمترادفات، وتمكنه من الألفاظ التي توصل المضمون بدقة وسهولة. وكان يمثل هذه الطريقة حنين بن إسحق العبادي في القرن الثالث الهجري، وهو الذي ترجم عدداً هائلاً من كتب اليونان.

والطريقة الثالثة : التلخيص والاختصار : هذه الطريقة تجعل المترجم يختصر الكتاب الذي يقوم بترجمته، فيعرض مضمونه بصورة مبسطة، وتمتاز هذه الطريقة بالوصول إلى المضمون بأقرب وسيلة، ولكن هذا الاختصار يرجع إلى ثقافة المترجم، وقدرته على عرض الكتاب ملخصاً دون حذف لمهم أو إضافة ما ليس بمهم . وكان هناك ثلاثة من كبار المترجمين يستخدمون هذه الطريقة، وقد ساعدهم على ذلك تبحرهم في اللغة، وفي كثير من العلوم، وهؤلاء هم: عبد الله بن المقفع، ويعقوب الكندي، ويحيي بن عدي.

والطريقة الرابعة هي : الترجمة غير المباشرة : أو الترجمة من اليونانية إلى السريانية، ثم منها إلى العربية، وكانت هذه الطريقة تحتاج إلى متجر في اللغتين اليونانية والسريانية، فضلاً عن العربية. وقد استخدم هذه الطريقة حنين بن إسحاق، وابنه إسحاق بن حنين، وبن أخته حبيش بن الحسن الأعسم. وكان حنين يجعل ابنه وابن أخيه يترجمون اليونانية إلى السريانية ثم

يقوم هو – غالباً– بالترجمة إلى العربية،كما أن حنيناً استخدم عدداً من النقلة مم يعرفون اللغتين اليونانية والسريانية في هذه الطريقة.

الأمانة في النقل والترجمة:

هذه نقطة جديرة بالنظر، ونحن بصدد الحديث عن الترجمة والنقل للتراث اليوناني والفارسي إلى اللغة العربية، ولقد كان النقل إلى اللغة العربية في العلوم التجريبية من الطب وكيمياء وفيزياء ورياضيات وفلك يتجه إلى الدقة التامة قدر المستطاع، ويرجع السبب في ذلك إلى أن هذه العلوم سيقوم العلماء بتجربة ما فيها بصورة عملية، وسيكتشفون خطأها إن كانت خطأ، وربما انكشف خطأ النقل، وفقدت الثقة في المترجم، وبخاصة إذا كان هناك أكثر من مترجم للكتاب الواحد .

أما كتب "الإلهيات" أو الكتب المتعلقة بالعقيدة والمنطق، فقد كان يشوب ترجمتها بعض التحريف، لتوافق عقيدة المترجم، وشاهد على ذلك أن أغلب المترجمين الأوائل كانوا من النصارى فلما ترجموا كتب أفلاطون على سبيل المثال جعلوه أشبه براهب من رهبان النظام، له معبد، وكان النساطرة واليعاقبة من أكثر الناس خطراً في مجال الترجمة لما كانوا يفعلوه من جعل الترجمة موافقة لمذهبهم واتجاهاتهم. وأما علماء المسلمين، فإنهم كانوا لا يترجمون إلا ما وافق معتقداتهم، وتركوا مادون ذلك، وكان هذا بسبب حرصهم الشديد على الأمانة في النقل فإنهم إن نقلوا شيئاً مخالفاً للعقيدة، فسينقلونه دون تحريف، لذلك تركوه مخافة التعرض لعدم الأمانة في الترجمة.

مراكز الترجمة في القرون الهجرية الأولى :

اشتهرت في القرون الهجرية الأولى مجموعة من المراكز الخاصة بالترجمة، منها ما كان قدماً وجدده المسلمون، ومنها ما أقامه المسلمون في الدولة الإسلامية ليسهم في ازدهار حركة الترجمة وإنعاشها، فمن بين هذه المراكز: مدرسة الأسكندرية بمصر، التي كان بها التراث اليوناني، وقد

اشتهرت هذه المدرسة منذ العصر الأموي، وقد زارها الأمير خالد بن يزيد حكيم آل مروان، وأفاد من الكتب التي بها.وكانت مدرسة جنديسابور بفارس التي عرفت قبل الإسلام بمدة كبيرة، حيث كان النسطوريون والسريان يأمونها، وازدهرت فيها حركة الترجمة بعد الإسلام، وهي التي تخرج فيها عدد من الأطباء والمترجمين، ثم كانت مدرسة إنطاكية وحران بالشام، اللتان انتقل إليها كثير مما كان في مدرسة الاسكندرية، وكانت تأتيهما الكتب من اليونان، ويتم فيها الترجمة، وفي الجزيرة كانت مدرسة نصيبين ومدرسة الرها وقد اشتهرتا بترجمة الكتب الفلسفية من التراث الإغريقي، أما بيت الحكمة في بغداد، فكان من انشط مراكز الترجمة، بحكم موقعه، وقربه من بلاط الخلافة ومراكز إدارة الدولة الإسلامية، ولذلك كان الاهتمام به كبيراً، يؤمه المترجمون عن كل مكان، ويفد إليه العلماء، وطلاب العلم، وتجمع فيه نوادر الكتب التراثية.

نتائج حركة الترجمة :

وبعد هذا الكلام الموجز عن حركة الترجمة نذكر باختصار أهم النتائج العامة التي ترتبت عليها . وينبغى أن نذكر هنا أولا أن الحضارات أخذ وعطاء وأي حضارة لا تفيد من غيرها أو لا تعطي تعد حضارة جامدة ميتة تندثر بمرور الزمن.

ومن هنا نقول : إن الحضارة الإسلامية كانت حضارة بعث وإحياء فقد أحيت موات حضارات قديمة.لقد أفاد المسلمون من الكتب التى ترجموها ، وبخاصة ما أخذوه عن الأغريق ، لكنهم شكلوا المادة العلمية التى حصلوا عليها تشكيلاً جديداً، وابتكروا طريقة البحث العلمي الصحيح، وهي طريقة البحث القائم على التجربة والملاحظة، فقد اختبر العلماء في الدولة الإسلامية تلك النظريات والقواعد والأراء العلمية التي ترجموها، فأثبتوا صحة الصحيح منها، ونبهوا على خطأ بعضها وعدلوه. ويرد هنا سؤال: هل ينقص من قدر الحضارة الإسلامية أنها أفادت من الحضارات السابقة عليها والجواب: لا..

فإن أحداً لم يقل إن إفادة اليونانيين القدماء من بعض عناصر حضارة قـدماء المصريين قلل من شأن من قدر حضارة الرومان. وبالتالي فإن قدرة الحضارة الإسلامية على الأخذ من الحضارات الأخرى، ليس دليلاً على نقصها. ويكفي حضارة الإسلام فخرا أنها رفعت شعار الأمانة في النقل ، كما يكفيهـا أنهـا أخذت ماينفع البشر ، تاركة ما يخص العقيدة لأن عندها ما يغنيها فـي هـذا الجانب (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) ، وقد انتقت أفضل عناصر الحضـارات القديمة، واقتبستها وهضمتها، وأخرجتها فى ثوب جديد.

واتجهت إلى كتاب الله تعالى، دستورها الدائم لترد به على كثيـر مـن الآراء والأفكار التى وجدوها فى الكتب التى ترجموها، ووجدوا فيها ما يخالف العقيدة الإسلامية.وسخرت هذه الحضارة ما ترجمته ثم ما طورته من علوم بعد هذه الترجمة، سخرت كل ذلك في سبيل حياتها الإسـلامية، وتحقيـق هـدفها الأسمى وهدف كل مسلم، وهو عبـادة الله الواحـد الأحـد، فسـخروا علـم الرياضيات لخدمة مسائل شرعية كالميراث وغيره، وسخروا الفلـك للتعـرف على هلال رمضان وغيره. وقد جعلت من قضية الترجمة مجـالا للعلاقـات الدبلوماسية بين الدول المختلفة. وأنقذت تراثا كثيـرا للعـالم كـاد أن يمـوت ويعتريه النسيان، ويكفى أن البرامكة مثلا أرسلوا للرومـان ليحصـلوا علـى مجموعة من الكتب والمخطوطات كانوا قد بنوا عليها بناء هائلا حتى لا يفيد منه أحد، فأخرج المسلمون ذلك إلى النور ليخدم البشرية جمعـاء. وحفظـت حضارة الإسلام ذلك التراث ثم صوبته وطورته وأضافت إليه ليأتي بعد ذلك الأوربيون، فيعتمدوه أساسا في نهضتهم الحديثة . ويكفي الحضارة الإسـلامية فخرا أنها أعطت الباحثين المسلمين فرصة للبحث فى مصادر الكلمات غيـر العربية ، وإيجاد اشتقاقات جديدة لها من طبيعة اللغة العربية المرنة، مما أدى تطوير البحث اللغوى.

وسنقف بعد قليل على جوانب مهمة كانت نتيجة لتلك الحركة (الترجمة) فى الطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلك..غير أنه من الضرورى التأكيد على أنه ربما ظهر من بين العلماء من ليسوا على دين الإسلام، لكنهم عاشوا فى ظل الدولة الإسلامية، وخلفاء المسلمين هم الذين استعملوهم فى هذه الأغراض العلمية،وبالتالي فهم يحسبون للحضارة الإسلامية صاحبة الفضل في ظهورهم وتشجيعهم، وهذا يشير إلى سماحة الإسلام وعدله.

مكتبة بيت الحكمة ببغداد

"إنها أحد الكنوز العلمية التي أنتجها الفكر الإسلامي قديما ببغداد كما أنتج غيرها من المكتبات العلمية في سائر الأقطار الإسلامية شرقا وغربا .

وأنشئت هذه المكتبة في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) حيث أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد ــ رحمه الله ــ وذلك بعد أن ضاقت مكتبة قصره بما فيها من كتب ، وعجزت عن احتواء القراء المترددين عليها ، مما جعله يفكر في إخراجها من القصر ، وإفرادها بمبنى خاص بها ، يصلح لاستيعاب أكبر عدد من الكتب ، ويكون مفتوحا أمام كل الدارسين وطلاب العلم.

فاختار لها مكانا مناسبا ، وأقام عليه مبنى مكونا من عدة قاعات ، قاعة للاطلاع ، وقاعة للمدارسة ، وقاعة لنسخ الكتب الجديدة وتجليدها ، وقاعة للترويح عن النفس وللاستراحة ، ومسجدا للصلاة ، ومكانا يبيت فيه الغرباء ، تتوفر فيه مقومات الحياة من طعام وشراب وغيره ، ومخزنا للكتب ، نظمت فيه بحيث صار لكل فن من الفنون العلمية مكان خاص به ، وتوضع فيه مرتبة في دواليب ، يحمل كل دولاب عنوانا لما فيه من كتب ، وأرقامها ، ثم جعل لكل فن فهرست خاص به ، يشمل عناوين وأرقام الكتب ، وتعريف بكل كتاب

ومؤلفه ، وعدد أجزائه وصفحاته ، واللغة التي كتب بها ، وإشارة إلى أجزائه المفقودة إن كان فقد منه شيء .

ثم زودها بما تحتاج إليه من أثاث ومرافق ، وأحبار وأوراق للدارسين، وعين لها المشرفين على إدارتها ، والعمال القائمين على خدمة ورعاية زائريها.

وأحضر لها كبار العلماء في فنون العلم المختلفة ، مسلمين وغير مسلمين عربا وعجما ، وأجزل لهم العطاء ، وفتح لهم باب المناقشات الحرة فيها ، وإقامة المناظرات العلمية ، وتصنيف الكتب، وشجع الطلاب على التردد عليها من شتى الأرجاء ورصد لهم المكافآت ، وأجرى عليهم الأرزاق.

وصار يجلب إليها كل كتاب يسمع عنه ، بل وشجع التجار الذين كانوا يرحلون إلى بلاد فارس والروم والهند بشراء ما يقع تحت أيديهم من كتب أيا كان نوعها، وحض باقي الناس على المساهمة في ذلك حتى قيل : إنه كان في بعض الأوقات يقبل الجزية ممن تجب عليهم كتبا ([١]) كما أحضر لها مئات النساخ والشراح والمترجمين من شتى اللغات ؛ لتعريب ونقل الكتب من لغتها الأصلية .

وواصل ابنه المأمون بعده الاهتمام بتلك المكتبة ، حتى غدت من أعظم المكتبات في العالم ، ووضع بها مرصدا ؛ ليكون تعليم الفلك فيها تعليما عمليا يجرب فيها الطلاب ما يدرسونه من نظريات علمية ، وبنى بها مستشفى لعلاج المرضى وتعليم الطب ، إذ كان يؤمن بأن العلم النظري وحده لا جدوى منه .

وكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من العلوم القديمة المخزونة المورثة عن اليونان ، وكانت تقاليد الروم وقتها تمنع من مطالعتها ، ثم أجابه إلى ذلك بعد امتناع ، فجهز المأمون بعثة علمية ، وزودها بنفر من المترجين ، وجعل على رأسها المشرف على مكتبة" بيت الحكمة" .

وتجولت تلك البعثة في كثير من الأماكن المختلفة التي يظن أن فيها مخازن للكتب اليونانية القديمة ، وعادت إليه بطرائف الكتب ، وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب والفلك وغير ذلك من العلوم.

كما راسل المأمون باقي الملوك في عصره يسألهم أن يسمحوا لبعثاته بالبحث والتنقيب عن الكتب في المخازن القديمة ، ومما حكي في ذلك أن إحدى هذه البعثات العلمية وجدت تحت حصن قديم ببلاد فارس صناديق بها كتب كثيرة قد تعفنت حتى فاحت منها رائحة نتنة ، وكأن الدباغة فارقتها عن قرب فأخذتها رجال البعثة، وحملوها إلى بغداد وبقيت حولا كاملا حتى جفت وتغيرت وزالت الرائحة عنها .

واجتمع لدى المأمون بذلك ثروة هائلة من الكتب القديمة ، فشكل لها هيئة من المترجمين المهرة والشراح والوراقين، للإشراف على ترميمها ونقلها إلى العربية وعين مسئولا لكل لغة يشرف على من يترجمون تراثها ، وأجرى عليهم الرواتب العظيمة ، حيث جعل لكل واحد خمسمائة دينار في الشهر، أي ما يساوي ٢كيلو جرام ذهبا تقريبا ، بالإضافة إلى الأعطيات الأخرى ، إذ أعطى على بعض الكتب المترجمة وزنها ذهبا.

وقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست أسماء لعشرات ممن كانوا يقومون بالترجمة من اللغات الهندية واليونانية والفارسية والسريانية والنبطية .

وهؤلاء لم يقوموا بترجمة الكتب إلى العربية فقط ، وإنما إلى سائر اللغات الحية المنتشرة داخل المجتمع الإسلامي ؛ كي ينتفع بها جميع من يعيش داخل البلاد الإسلامية على اختلاف جنسياتهم ، وبعضهم كان يقوم بترجمة الأصل إلى لغته هو ، ثم يقوم مترجم آخر بنقله إلى العربية وغيرها ، كما كان يفعل يوحنا بن ماسويه الذي كان ينقل الكتاب إلى السريانية ، ثم يكلف غيره بنقله إلى العربية ، مع الاحتفاظ بالأصل بعد صيانته وتجليده ، ومن يراجع كتب الفهارس التي نقلت عن هذه المكتبة يجد إشارات كثيرة تدل على أن

الكثير من الكتب كان يوجد منها نسخ نبطية وقبطية وسريانية وفارسية وهندية ويونانية .

وقدم علماء المسلمين بذلك خدمة جليلة للبشرية جمعاء ، بنقلهم لهذا التراث الذي كان مهددا بالزوال ، ولولاهم ما عرف الناس في العصر الحديث شيئا عن المصنفات اليونانية والهندية الثمينة القديمة، حيث كان يحرم الاطلاع عليها في كثير من البلدان التي جلب منها ، وكان يحرق منها ما يعثر عليه، كما فعل بكتب أرشميدس العالم الشهير، إذ أحرق الروم منها خمسة عشر حملا.

وبالطبع لم يقتصر دور هؤلاء العلماء على الترجمة ، وإنما قاموا بالتعليق على هذه الكتب ، وتفسير ما فيها من نظريات ، ونقلها إلى حيز التطبيق ، وإكمال ما فيها من نقص ، وتصويب ما فيها من خطأ ، حيث كان عملهم يشبه ما يسمى بالتحقيق الآن ، كما يفهم من تعليقات ابن النديم على بعض تلك الكتب .

وما إن انتهى عصر المأمون حتى كانت معظم الكتب اليونانية والهندية والفارسية وغيرها من الكتب القديمة في علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء والهندسة موجودة بصورتها العربية الجديدة بمكتبة " بيت الحكمة ".

يقول ول ديورانت صاحب كتاب " قصة الحضارة " لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين ، وتأتي الهند في المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان ، وجمع " فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة ، ولا يقوم عليه نفاسة " كما قال القلقشندي .

وهذه المكتبة على عظمتها لم تكن الوحيدة في العالم الإسلامي ، وإنما كان ثمة الكثير من المكتبات التي لم تقل شأنا عن عنها ؛ لأن الأمراء المسلمين كان يتنافسون في جمع الكتاب ، حتى إن أمير الأندلس كان يبعث رجالا إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها ، وكان الخليفة

الفاطمي (العزيز) بمصر لا يسمع عن كتاب إلا جلبه إلى مكتبته بالقاهرة ، وتذكر المقريزي أنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب ، تصل نسخ بعضها إلى مائة نسخة .

وكانت خزانة الكتب بمرو (المدينة الفارسية) تضم بين كتبها الكثيرة مكتبة "يزدجرد "آخر ملوك الفرس ، والتي ورثها عن الملوك قبله ، وأظن أنها كانت تجمع تراث الفرس أو أكثره على مر التاريخ ، وقد حفظت كاملة كما هي بتلك المدينة التي أودعها فيها يزدجرد قبل موته .

وكذلك الحال في المكتبات التي أنشئت ببلاد الشام وبلاد أفريقيا ، فقد أسس أمين الدولة أحد بني عمار الذين ملكوا طرابلس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) مكتبة سماها دار العلم ، وأوقف عليها من ماله الخاص مائة ألف كتاب ، وأرسل الرسل إلى الأقطار المختلفة لجلب الكتب النادرة ، وجعل بها مائة وثمانين ناسخا ينسخون له الكتب ، حتى ذكر أنها حوت مليون كتابا .

هذا في الوقت الذي كانت فيه أشهر المكتبات بأوربا لا تحوي غير بضعة مئات في كل مكتبة ، فمكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانز في القرن التاسع الميلادي لم يكن بها أكثر من ثلاثمائة وستة وخمسين كتابا ، ومكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢م كان بها ما يزيد على المائة كتاب بقليل ، وكان في خزانة كتب الكتدرائية في مدينة بامبرج سنة ١١٣٠م ستة وتسعون كتابا فقط ، كما يقول ا/ آدم متز أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بازل بسويسرا سابقا .

ومن العجب أن الاهتمام بجمع الكتب وبذل الأموال الكثيرة لم يقتصر على الأمراء فقط ، وإنما انتشرت تلك العادة الحسنة بين الأثرياء أيضا من أهل الخير ، فهذا رجل يسمى" أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي " يؤسس دارا للعلم في بلده ، ويجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم ، لا يمنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب العلم وكان

معسرا أعطاه ورقا ومالا ، وهذا القاضي ابن حبان يؤسس في مدينة نيسابور دارا للعلم وخزانة الكتب ، ويجعل فيها مساكن للغرباء الذين يطلبون العلم ، ويجرى عليهم الأرزاق .

وذكر أن مكتبة عضد الدولة ببغداد لم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم إلا وحصله فيها ، كما ذكر المقدسي أحد الرحالة الذين زاروها ، وكانت في مكان واسع فيه خزائن من كل وجه ، وقد قسم إلى طرق ووضع إلى جميع حيطانه أرفف مقسمة كل رف طوله قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع (أي من المعرفة) بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب ، وقد جعل للإشراف عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد .

وهذا علي بن يحيى المنجم والذي عاش في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) قد أنشأ خزانة كتب ، وسماها خزانة الحكمة ، وكان يقصدها الناس في كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة لهم ، والضيافة مشتملة عليهم من مال علي بن يحيى .

وحرص الأفراد على تملك كتبهم حرصهم على الحياة ، فهذا الوزير الشهير ابن العميد نهب قوم من الغزاة داره ، ولم يتركوا له من المتاع شيئا إلا مكتبته ، فلما أخبره خازنها أنه لم تمسها يد سري عنه ، وقال له : إنك لمأمون النقية ، أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض ، وهذه الخزائن هي التي لا عوض عنها .

وإن يعجب القارئ من حرص هؤلاء على اقتناء الكتاب وتقديره فإعجابه سيكون أعظم عندما يعلم بمقدار ما كان يبذلونه لمن يؤلف كتابا ويهديه إليهم ، فالجاحظ يذكر أنه ألف كتاب الحيوان وأهداه إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأهداه خمسة آلاف دينار ، وألف كتاب البيان والتبيين وأهداه إلى

القاضي أحمد بن داوود فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وألف كتاب الزروع والنخيل وأهداه إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاه خمسة آلاف دينار .

وهذه الكتب لم تكن مجرد ديكورات أو أعمال يتباهى بها ، وإنما كان شغف القراء والعلماء لا يقل عن ذلك ، فالجاحظ مثلا (وهو واحد من آلاف العلماء الذين أنجبتهم الحضارة الإسلامية) وصل به الحال إلى درجة أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للقراءة رغم مرضه ، حتى مات مدفونا تحت مجلداتها بعد أن سقطت عليها ، وهو جالس بينها .

وقد أدى هذا الاعتناء بالمكتبات والكتب الذي سبقت الإشارة إليه إلى حدوث نهضة علمية عند المسلمين الأوائل في سائر المجالات ، لم يشهد لها التاريخ مثيلا قبل العصر الحديث ، هذا في الوقت الذي كانت أوربا (كما يقول سارتون أحد علمائها) في حال مزرية من البداوة والتخلف .

ويسرت السبل لنبوغ كثير من العلماء الذين صاروا أصحاب الريادة في علوم شتى ارتبط اسمهم بها إلى الآن مثل :

الخوارزمي (محمد بن موسى) الذي يعد المبتكر الحقيقي لعلم الجبر بصورته الحديثة ، ووضح كيف تحل المعادلة من الدرجة الأولى والثانية ، وسائر المعادلات الأخرى المرتبطة بالمشكلات الأخرى ، واستطاع أن يعالج خمس فئات من الدرجة الثانية ، وصار المعلم الأول له .

وهو أول من أطلق على الكمية المجهولة اسم " الجذر " إشارة إلى جذر النبات الذي عادة ما يكون مختفيا تحت الأرض ، واستخدم مصطلح القوة " الأوس " ليصف به مربع الجذر .

وإلى هذا الرجل وغيره من علماء المسلمين يرجع الفضل في استخدم نظام الصفر الذي أحدث تطورا في العمليات الرياضية ، كما يذكر "ول ديورانت " حيث قال : كانوا يضعون دائرة صغيرة مكان الرقم غير الموضوع مكان العشرات ، وسميت هذه الدائرة " صفرا " أي خالية ، ومنها اشتقت الكلمة

الإنجليزية cipher وحور اللاتين لفظ صفر Sifr إلى zephyrum ثم اختصره الطليان إلى zero .

كما كان للخوارزمي هذا معرفة واسعة بعلم الفلك ، وقال عنه ابن النديم :" كان منقطعا إلى خزانة الحكمة للمأمون، وهو من أصحاب علوم الهيئة ، وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الأول والثاني ، ويعرفان بالسند هند .

والرازي (أبو بكر محمد بن زكريا) الطبيب الشهير الذي برع في كثير من العلوم ، وصنف قرابة ١٣١كتابا نصفها في الطب ، ويشتهر من تلك الكتب كتاب " الحاوي " ويقع في عشرين مجلدا ، يبحث في فروع الطب كلها ، وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية وسمي liber cntinens وظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة ، وأهم مرجع لعلم الطب في أوربا ، وكان من الكتب التسعة التي تتألف منها مكتبة الكلية الطبية في جامعة باريس خلال القرن الرابع عشر الميلادي .

كما طبعت رسالته في الجدري والحصبة باللغة الإنجليزية أربعين مرة ما بين عامي ١٤٩٨و١٨٦٦م ، وظل كتابه المسمى المنصوري (أهداه إلى رجل يسمى منصور بن إسماعيل)متداولا في أوربا خلا القرن السادس عشر الميلادي .

ونال هذا الرجل منزلة عالية في العلم مع ما اتصف به من تواضع وحب للفقراء ، حتى وصفه ابن النديم بقوله " أوحد دهره وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء وسيما الطب ، وكان ينتقل في البلدان ... وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ أخر ، وكان يجيء الرجل المريض فيصف ما يجد لأول من تلقاه ، فان كان عندهم علم وإلا تعداهم إلى غيرهم ، فان أصابوا وإلا تكلم الرازي في ذلك ، وكان

كريما متفضلا بارا بالناس، وحسن الرأفة بالفقراء والأعلاء (المرضى) حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم .

ومن بين الكتب التي أثرت عنه : كتاب الحاوي ، وهو المشار إليه آنفا، ويسمى الجامع الحاصر لصناعة الطب ، كتاب ما يقدم من الفواكه والأغذية وما يؤخر ، كتاب الجدري والحصبة ، كتاب الحصى في الكلى والمثانة ، كتاب إلى من لا يحضره طبيب ، كتاب الأدوية الموجودة بكل مكان، كتاب الطب الملوكي ، كتاب التقسيم والتشجير كتاب اختصار كتاب النبض الكبير لجالينوس، كتاب الفالج (الشلل) ، كتاب هيئة الكبد ، كتاب النقرس، كتاب هيئة العين كتاب الأنثيين ، كتاب هيئة القلب ، كتاب أوجاع المفاصل ، كتاب كيفية الاغتذاء ، كتاب إبدال الأدوية ، كتاب تقسيم الأمراض وأسبابها وعلاجاتها ، كتاب بين فيه أن صناعة الكيمياء إلى الوجوب أقرب منها إلى الامتناع .

ومن العجب أن الرازي وغيره من أطباء المسلمين قد نالوا من الغربيين من التقدير ما لم ينالوه في بلادنا العربية ، حتى إن جامعة برستون الأمريكية كانت تخصص جناحا بمبانيها لعرض مآثر هذا الرجل ، كما ذكر ول ديورانت أن مدرسة الطب بجامعة باريس كانت تعلقان له وابن سينا صورتين ملونتين ؛ لما لهما من فضل على مهنة الطب .

وذكر أيضا أن مدير جامعة برلين ورئيس فرع الطب بها ، قال : في حفل أقيم بها " أيها الطلاب العرب ! والآن اسمحوا بأن نعيد على أسماعكم ما أخذناه من أسلافكم ، وتعلمناه عن آبائكم]

واعترفت د/ شواهرت (وزير صحة ألمانيا الاتحادية) في افتتاح إحدى المؤتمرات الدولية بالقاهرة بمثل ذلك الفضل فقالت : " إن الغرب لن ينسى أبدا أنه مدين للعرب بدراسة الطب ، وأن مؤلفات ابن سينا والرازي كانت هي

الكتب الوحيدة التي درس في جامعة بالرمو التي تضم أشهر مدرسة للطب في العلم الغربي

وابن سينا (أبو علي بن الحسين)الطبيب الشهير أيضا الذي صنف ما يزيد عن مائة كتاب في فنون العلم المختلفة بالعربية والفارسية ، أشهرها كتاب " القانون" في الطب الذي غطت شهرته على مؤلفات الرازي نفسه ، بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية ، وأصبح المعتمد عليه في دراسة الطب في المدارس الأوربية .

ومن بين مصنفاته أيضا دراسات مبتكرة في الحركة والطاقة والفراغ والضوء والحرارة والكثافة النوعية ، وله رسالة في المعادن بقيت حتى القرن الثالث عشر الميلادي أهم مصادر علم طبقات الأرض عند الأوربيين ، وحديثه فيها عن تكوين الجبال يعد أنموذجا للوضوح في العلم ، فقد قال :إن الجبال قد تنشأ من سببين مختلفين :

الأول : قد يكون نتيجة اضطرابات في القشرة الأرضية كما يحدث في أثناء الزلازل العنيفة .

والثاني : قد يكون نتيجة لفعل المياه التي تشق لنفسها طريقا جديدا بنحت الأودية ، ذلك أن طبقات الأرض مختلفة في أنواعها ؛ فمنها الهش ومنها الصلب ، والرياح والمياه تفتتان النوع الأول ، ولكنها تتركان صخور النوع الثاني على حالها ...." .

والبيروني (أبو الريحان أحمد بن محمد) الذي اشتهر بمعرفته الواسعة في علم الهيئة والنجوم وكان له نظر جيد في صناعة الطب كما يقول صاحب كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،وكان فيلسوفا ومؤرخا ورحالة وجغرافيا ولغويا ورياضيا وفلكيا وعالما في الطبيعيات ،له مصنفات علمية في كل تلك المجالات .

ومنها : كتاب الجماهر في الجواهر وأنواعها ، وكتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية ، وكتاب الصيدلة في الطب استقصى فيه معرفة ماهيات الأدوية ، ومعرفة أسمائها واختلاف آراء المتقدمين من الأطباء وغيرهم فيها، وقد رتبه على حروف المعجم ، وكتاب مقاليد الهيئة ،وكتاب تسطيح الكرة ،وكتاب العمل بالإسطرلاب ، وكتاب القانون المسعودي ،أهداه إلى أحد أمراء الهند في عصره ، وقد أشار في هذا الكتاب إلى كروية الأرض ، وأن كل الأشياء تنجذب نحو مركزها، وقال إن الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض تدور حول محورها مرة في كل يوم ، وحول الشمس مرة كل عام .

وله أيضا كتاب التفهيم في صناعة التنجيم ، وكتاب تاريخ الهند ، وقد ذكر ول ديورانت أن له مصنفات في الرياضيات توصل فيها إلى طريقة لحساب تكرار تضعيف دون الالتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة ...ووضع في الهندسة حلولا لنظريات سميت فيما بعد باسمه .

وجابر بن حيان الذي يعد إمام علم الكيمياء ، حتى إن القدماء كانوا يخصونها به قديما ، فيسمونها علم جابر ، بل من العلماء المحدثين أيضا من شهد له بتلك الإمامة ، ومن هؤلاء الفيلسوف الإنجليزي " باكون " الذي قال : إن جابر بن حيان الكوفي يعد معلم العالم في الكيمياء .

وقد عدد له صاحب كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون سبعين رسالة في هذا المجال ، منها كتاب "علل المعادن " و"كتاب الخالص في الكيمياء " ، وساهمت جهوده مع غيره ممن اشتغلوا بالكيمياء والبحث فيها من علماء المسلمين الآخرين في ازدهار هذا العلم ، حيث أدخلوا في دراسته الملاحظة الدقيقة ، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان ــ على ما نعلم ــ على الخبرة الصناعية وإلى فروض الغامضة ، فقد اخترعوا الأنبيق وسموه بهذا الاسم ، وحللوا عددا لا يحصى

من المواد تحليلا كيميائيا ، ووضعوا ، ووضعوا مؤلفات في الحجارة وميزوا بين القلويات والأحماض ، وفحصوا عن المواد التي تميل إليها ، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية ، وركبوا المئات منها .

وقد اشتهر عند الأوربيين فيما بعد باسم جيبير gebir وترجمت معظم الكتب المنسوبة إليه إلى اللغة اللاتينية ، وكان لها الفضل في تقدم علم الكيمياء في أوربا .

والبتاني (أبو عبدالله محمد بن جابر بن سنان الحراني) الذي قال عنه الذهبي: الحاسب المنجم له أعمال وأرصاد وبراعة في فنه ، وله تصانيف في علم الهيئة، وكان أوحد عصره في فنه وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه ، حتى إنه أقام لنفسه مرصاد خاصا به باشر عليه أعماله ، واستطاع به أن يحسب طول السنة الشمسية ، وذكر أنه يقدر ب ٣٦٥يوما وخمس ساعات و٤٨دقيقة و٢٤ثانية ، وهذا حساب لا يختلف كثيرا عما ذكره العلماء حديثا ، وتنبأ بكسوف الشمس وخسوف القمر بدرجة من الدقة المتناهية .

ومن تصانيفه في هذا المجال كتاب "الزيج " الذي شرح وطبع باللغة الإسبانية، وكتاب "معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك "وله رسالة في مقدار الاتصالات ، وكتاب شرح فيه أربعة أرباع الفلك ورسالة في تحقيق أقدار الاتصالات .

وابن النفيس(علاء الدين على ابن أبي الحرم القرشي)والذي قال عنه صاحب كتاب شذرات الذهب انتهيت إليه معرفة الطب في عصره ، وكان يتمتع بذكاء مفرط وذهن خارق ، وله كثير من المؤلفات في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق ، ووصفه الذهبي بقوله : صاحب التصانيف الفائقة في الطب الموجز وغيره،ألف في الطب كتاب "الشامل" وهو كتاب عظيم تدل فهرسته على أنه يتكون من ثلاثمائة مجلد ، وكانت تصا[illegible]ه يمليها من حفظه ،

ولا يحتاج إلى مراجعة ؛ لتبحره في العلم ، كما وصفه السبكي في كتابه " طبقات الشافعية" بقوله" لم يكن على وجه الأرض مثله في الطب، ولا جاء بعد ابن سينا مثله ، وكان في العلاج أعظم من ابن سينا . [1]

والإدريسي الجغرافي الشهير الذي زود المعرفة الإنسانية بحقائق جغرافية لا تختلف كثيرا عما هو متعارف عليه الآن ، من ذلك قوله : وأهل النظر في علم الهيئة يرون أن الأرض مدورة كتدوير الكرة ، والماء لاصق بها، وراكد عليها ركودا طبيعيا لا يفارقها ، والأرض والماء مستقران في جوف الفلك كـ[illegible]حة في جوف البيضة ، ووضعهما وضع متوسط ، والنسيم محيط بهما من جميع جهاتهما ، وهو لهما جاذب إلى جهة الفلك ، أو دافع لهما والله أعلم بحقيقة ذلك ، والأرض مستقرة في جوف الفلك ، وذلك لشدة سرعة حركة الفلك ، وجميع المخلوقات على ظهرها ، والنسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة، والأرض جاذبة لما في أبدانهم .

وقال :إن الثقل بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الحديد إليه ، والأرض مقسومة بقسمين بينهما خط الاستواء ، وهو من المشرق إلى المغرب، وهذا هو طول الأرض ، وهو أكبر خط في الكرة ، كما أن منطقة البروج أكبر خط في الفلك ، واستدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاث مائة وستون درجة ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخا ، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع أربعة وعشرون إصبعا ، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصقة بطون بعضها لظهور بعض .

فتكون بهذه النسبة إحاطة الأرض مائة ألف ألف ذراع ، واثنين وثلاثين ألف ألف ذراع، وتكون من الفراسخ أحد عشر ألف فرسخ هذا بحساب أهل الهند ، وأما هرمس فإنه قدر إحاطة الأرض ، وجعل لكل جزء مائة ميل ، فتكون بذلك ستة وثلاثين ألف ميل ، ومن الفراسخ اثني عشر ألف فرسخ .

وبين خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعون درجة ، واستدارتها عرضا مثل ذلك ، إلا أن العمارة في الأرض بعد خط الاستواء أربع وستون درجة ، والباقي من الأرض خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود ، والخلق بجملته على الربع الشمالي من الأرض ، وأيضا فإن الربع الجنوبي وهو الذي فوق خط الاستواء غير مسكون ولا معمور لشدة الحر به دائما على سمته، فجفت مياهه وعدم حيوانه ونباته لعدم الرطوبة .

والأرض في ذاتها مستديرة لكنها غير صادقة الاستدارة فمنها منخفض ومرتفع والماء يجري فيها من أرفعها إلي أخفضها، والبحر المحيط يحيط بنصف الأرض إحاطة متصلة ، دائرتها كالمنطقة لا يظهر من إلا نصفها ، فكأنها عند الصفة بيضة مغرقة في ..

وقد سجل ذلك في مقدمة كتابه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " الذي ألفه بعد أن طاف المعمورة ورأى ما فيها بعينه . وأبو حنيفة الدينوري (أحمد بن داود) الذي كان كما قال أبن النديم : بارعا في علوم كثيرة منها النحو واللغة والهندسة والحساب وعلوم الهند ، واشتهر بالبحث في علوم النبات ، وقد أعد فيها مصنفا سماه "النبات " أثنى على فضله العلماء ، وله أيضا "كتاب الفصاحة" و" كتاب الأنواء " و" كتاب القبلة والزوال " و"كتاب حساب الدور" و" كتاب البحث في حساب الهند" و" كتاب البلدان " و" كتاب الجبر والمقابلة " و"كتاب الأخبار الطوال " .

هذا وقد ابتدع بعض علماء المسلمين ممن أنجبتهم تلك النهضة العلمية نظام الجمعيات العلمية، بمعنى أن يقوم مجموعة من العلماء بالتعاون في دراستهم وأبحاثهم ؛ لتخرج أعمالهم بصورة موسوعية ومتكاملة ، ومن هؤلاء جماعة "إخوان الصفا " الذين أعدوا موسوعة علمية شاملة ، وأسرة بني موسى (محمد وأحمد والحسن بنو موسى بن شاكر) .

وقد وصفهم ابن النديم بقوله : هؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب ، وأتعبوا فيها نفوسهم ، وأنفذوا إلى بلد الروم من أخرجها إليهم ، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني ، فاظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم " .

هذه نماذج فقط لمئات لمن أنتجهم الفكر الإسلامي ، وملئت مؤلفاتهم المكتبات ، ولكن للأسف جل ما أبدعه هؤلاء من مؤلفات علمية أبيد في بغداد وغيرها من المدن الإسلامية تحت هجمات التتار الذين علتهم الهمجية ، ولم يكنوا يقدرون العلم في شيء ، وأقل دليل على ذلك ما فعلوه بمكتبة بغداد، إذ أحرقوا فور دخولها كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون ، وأفنى الناس أموالهم وأعمارهم طوال خمسة قرون في جمعها ، وصنعوا ببعضها جسرا على النهر يعبرون عليه.

وأعدموا آلاف الطلاب الذين أقبلوا من سائر العالم للدراسة بها ،كما قتلوا آلاف العلماء الذين كانوا ينشرون العلم في ربوعها ، وفقدت البشرية جمعاء وليست بغداد فقط كنزا من أعظم الكنوز ، وكانت الخسارة على العالم أجمع عظيمة بحيث لا يعلمها إلا الله .

وقد صور صاحب قصة الحضارة آثار دخول التتار فيقول :" ولسنا نعرف حضارة من الحضارات في التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائي من عانته الحضارة الإسلامية على أيدي المغول ...ولم يأتوا ليفتحوا ويقيموا ، بل جاءوا ليقتلوا وينهبوا ويحملوا ما يسلبون إلى منغوليا ، ولما ارتد تيار فتوحهم الدموي خلف وراءه اقتصادا مضطربا ، وقنوات للري مطمورة ، ومداس ودورا للكتب رمادا تذروه الرياح " .

ولم تكن آثار الصليبيين على تدمير تلك النهضة العلمية عند المسلمين بأقل من آثار التتار ، بل كانت أشد ، ورغم أنها انتهت بانتصار المسلمين ، إلا

أنها أوقفت الازدهار الحضاري عند المسلمين ، ورجعت به إلى الوراء بسبب ما خلفته الحروب الطاحنة من هلاك ودمار .

ومن العجب أن المؤلفات العلمية التي كانت نتاج الفكر الإسلامي التي نجت من الدمار على أيدي الغزاة من الشرق والغرب كانت من أهم أسباب النهضة العلمية الحديثة في أوربا ، وقد شهد بذلك كثير من العلماء المنصفين في الغرب ، ومن هؤلاء غوستاف لبون الذي قال : كلما تعمق المرء في دراسة المدنية الإسلامية تجلت له أمور جديدة ، واتسعت أمامه الآفاق ، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة علماء المسلمين ... ولقد عاشت جامعات الغرب خمسمائة سنة تنقل عن العرب وتتعلم منهم .

ومن هؤلاء أيضا سيدو الذي قال : إن علماء المسلمين هم في الواقع أساتذة أوربا في جميع فروع المعرفة ، ورينان الفرنسي الذي قال : إن العلوم والحضارة مدينة بإزدهارها وانتشارها للمسلمين وحدهم طوال ستة " .

وبريفولت الذي قال : إن العلم هو أجل خدمة أسدتها الحضارة العربية إلى العلم الحديث ، فالإغريق قد نظموا وعمموا ووضعوا النظريات ، ولكن روح البحث .. وطرائق العلم الدقيقة والملاحظة الدائبة المتطاولة كانت غريبة عن المزاج الإغريقي ، وإنما كان العرب هم أصحاب الفضل في تعريف أوربا بهذا كله ... إن العلم الأوربي مدين بوجوده للعرب ، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العلم الأوربي.

ويقول سيدو أحد علماء الغرب المعاصرين : إن مما تمتاز به مدرسة بغداد هو الروح العلمية الصادقة التي وجهت كل أعمالها ، فكانت تتقدم من المجهول إلى المعلوم ، تراقب الظهور بكل بكل دقة لتستنتج الأسباب من النتائج ، ولا تقبل حقيقة إلا إذا أثبتتها التجربة ...لقد امتلك العرب في القرن التاسع الميلادي الوسائل العلمية التي استطاع العلماء في العصر الحديث أن يستخدموها في اكتشافاتهم العظمى .

ويقول رينان الفيلسوف الفرنسي : إن العلوم والحضارة مدينة بازدهارها وانتشارها للمسلمين وحدهم طوال ستة قرون .

وهذه الثروة العلمية استفاد منها سائر العالم وخاصة بلاد الغرب ، الذين نقلت إليهم كثيرا من تلك المعارف عن طرق التجارة أو الحروب المسماة باسم الحروب الصليبية ، حيث نقل إليها كما يقوا ول ديورانت : آلاف الكتب التي ترجمت من العربية إلى اللاتينية .

وأخذوا من المسلمين خلال الاحتكاك بهم التعطش إلى العلم ، والولوع بالرقي ، ... وأخذ يجوب ميادين العقل ... وسار تحدوه العزة إلى عصر النهضة"[1].

([1]) راجع مقال : د . أحمد عبد الحميد – مجلة المؤتمر العلمي التاسع لكلية دار العلوم جامعة الفيوم .

بدأت الخلافة العباسية قوية، واختار عبد الله [السفاح] بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس العراق مقراً ليكون قريباً من بلاد فارس صاحبة الفضل في تكوين الخلافة واتخذ مدينة الكوفة عاصمة له في أول الأمر ، ثم انتقل منها الى الهاشمية التي أنشأها بالقرب من الكوفة ثم جاء الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور (أخوه) وأسس مدينة بغداد، وهي كلمة فارسية الأصل ومعناها "عطية الله" وقد بدئ العمل بإنشائها سنة ١٤٥هـ ، وانتقل اليها المنصور في العام التالي وأسماها دار السلام ، ولكنها ظلت تعرف باسمها الفارسي .

وتقع بغداد قرب مدينة "طيسقون" عاصمة الدولة الساسانية والتي استولى عليها سنة ٦٣٦م .

من أقدم الآثار المعمارية التي ما تزال باقية حتى الآن من بغداد القديمة القصر العباسي ..

ومن المرجح أن يكون هذا القصر هو قصر التاج الذي وضع أساسه الخليفة المعتمد سنة ٢٨٩هـ ، وأتمه الخليفة المكتفي .. ويقع القصر على الضفة الشرقية لنهر دجلة قرب القصر الحسني الذي كانت تقيم فيه بوران بنت الحسن بن سهل زوجة الخليفة المأمون .. ويصف ياقوت الحموي قصر التاج فيقول إن واجهته كان يتقدمها خمسة عقود وكل عقد يرتكز على عمودين من الرخام .

ويشغل القصر مساحة كبيرة ، وتتوسطه حديقة تحيطها الغرف المقبية، وقاعات ذات قباب ، وكثير من الأروقة والدهاليز، وفي الجهة الجنوبية مجموعة من الغرف تعرف باسم غرف الحريم ..

لما ضاقت بغداد القديمة بساكنيها امتدت المباني الى خارجها ، وخاصة على الضفة الشرقية لنهر دجلة ولذلك فقد بني سور آخر في القرن الخامس

الهجري سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) يحيط ببغداد ، وما يزال هذا السور باقيا حتى اليوم .. وأهم أجزاء هذا السور باب الشرجة وباب المعظم .. ولما جدد السلاجقة هذا السور في القرن السابع الهجري بنوا بابين ، باب الطلسم الذي نسفته الحكومة التركية سنة ١٩١٧، وباب الوسطاني الذي رممته مديرية الآثار مؤخرا وحولته الى متحف حربي .

من مدن العراق المهمة مدينة الرقة التي فتحها العرب سنة ١٨هـ ثم أنشأ الخليفة المنصور مدينة جديدة تبعد عن القديمة نحو ٣٠٠ قدم الى غربها ، وسماها "الرقيقة" ، ووضع فيها حامية حتى يؤمن حدود البلاد الشمالية ضد غزوات البيزنطيين . وفي وسط الرقيقة بنى المنصور مسجدها الجامع ، وكان عبارة عن مستطيل تحيطه الأروقة من جهته الأربعة ، وقد بني من الطوب اللبن (الطين) .. وقد تهدم المسجد ولم يبق منه الى مئذنته التي ترجع الى القرن السادس الهجري .

شيدت شمالي بغداد بأمر الخليفة المعتصم سنة٢٢١هـ ثاني عواصم الدولة العباسية في العراق واتخذها عاصمة للخلافة ، وخطط فيها القطائع لأصحاب الحرف والجنود والقواد وسائر أفراد الشعب .. وفي عصر الخليفة المتوكل ارتفع في وسط المدينة جامعه المشهور التي ما تزال مئذنته باقية وتعرف باسم "ملوية" .. وقد راعى الخلفاء في بناء مدينة سامراء أن تكون قطائع (أحياء) الجند يبعدون عن الأسواق وعن قطائع أصحاب الحرف المختلفة .

يعتبر الفن الإسلامي الفن الوحيد الذي اتخذ من الفن عنصرا زخرفيا مهما ، ولعل مرجع ذلك ما أصدره خلفاء الدولة الأموية من أوامر صارمة جعلت الكتابة على الطراز (النسيج والورق) أمرا ضروريا .. ولذلك تطور الخط العربي بسرعة واتخذ له أشكالا زخرفية متنوعة وأسماء فنية متعدده. أقدمها الخط الكوفي الصلب ذو الزوايا ..

تعتبر المدرسة المستنصرية آخر مخلفات العصر العباسي المعمارية في العراق وقد عرفت بالمستنصرية نسبة الى بانيها المستنصر بالله الذي تولى الخلافة من ٦٢٣-٦٤٠ . والد المستعصم آخر العباسيين في [بغداد][٦٤٠-٦٥٦هـ] وبقتله ودخول التتار بغداد سقطت الخلافة العباسية .. وقد أنفق على بنائها زهاء ٧٠٠ ألف دينار ذهباً ، وأوقف لها نحواً من مليون دينار يدر عليها دخلا سنويا قدره ٧٠ ألف دينار .

والمدرسة مستطيلة الشكل يتوسطها صحن كبير ، وفيها أربعة إيوانات في أضلاعها الأربعة ومن ملحقات المدرسة المستنصرية دار مجاورة تقع في شمالها ، تتكون من إيوان كبير وعدة إيوانات أخرى ، منها دار الحديث الشريف وذار القرآن وكان يدرس في هذه الدور علم الطب والرياضيات ، وقد استمر التدريس فيها حتى القرن العاشر الهجري .

وكانت الكتابة تزين مدخل المدرسة المستنصرية الأصلي، فهي من الآجر وبالخط الثلث على أرضية نباتية مزهرة غاية في الدقة والإبداع ونقرأ في الصف الثاني : " التي أعدها الذين آمنوا وعملوا الصالحات " وفي السطر الثالث:"وأمر أن تجعل مدرسة للفقهاء على المذاهب الأربعة " ، وفي السطر الرابع:"سيدنا ومولانا إمام المسلمين وخليفة رب العالمين " ، وفي السطر الخامس :"أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ."

الأخيضر

من القصور المهمة التي بنيت في العصر العباسي قصر الأخيضر ، وهو يقع في الصحراء جنوبي غربي بغداد ، كما يبعد عن كربلاء نحو ٤٥ كلم .. ويبدو في تخطيط هذا القصر التأثر الواضح بالعمارة الساسانية المتمثلة في إيوان كسرى الذي كان مايزال سليم في العصر العباسي ..

كما يبدو في قصر الأخيضر التأر بالأساليب المعمارية في قصور المنابرة بالحيرة ويتكون قصر الأخيضر من مستطيل يبلغ طوله ١٧٥م

وعرضه ١٧٠م ،وفي منتصف كل ضلع بوابة كبيرة ، وفي أركان المستطيل أربعة أبراج ، وبين كل برجين كبيرين عشرة أبراج صغيرة ، كما يحيط البوابة برجان كبيران ، لذلك فإنه يبدو من الخارج كأنه قلعة والقصر مبني بالحجر الجيري والجبس للجدران الخارجية ، أما الأقبية والقباب فهي من الطوب المحروق وعندما نمر من البوابة الرئيسية في الواجهة الشمالية ، فإننا ندخل دهليزا مغطى بقبو ويؤدي الى قاعة العرض وهذه القاعة مغطاة بسقف من الطوب المحروق ، أما جدرانها فقد زخرفت بحنيات ترتكز على أعمدة مبنية هي أيضا من الطوب وهذه الأعمدة ، فضلا عن دورها في زخرفة القاعة وتجميله ، تخفف من قوة الضغط على الجدران ..

مدينة الموصل :

تعد الموصل من مدن العراق المهمة ، فقد كانت في العصر الأموي قاعدة للجيوش العربية التي توغلت في أذربيجان وأرمينيا وكذلك ازدهرت الموصل ثانية في القرن الرابع الهجري ، في عهد الحمدانيين الذين اتخذوها عاصمة لهم ، كما استمرت عاصمة حكم الى الأتابكة ، ولعل من أهم آثارها الباقية مئذنة مسجدها الجامع والتي تعرف باسم "الحدباء ."

المنسوجات العباسية :

كانت المنسوجات الصوفية والحريرية من أهم الصادرات في العصر العباسي ، وذلك لكثرة عدد المصانع .. وتدل أسماء بعض أنواع الأقمشة التي ما تزال باقية حتى اليوم على مدى انتشار المنسوجات العربية وجودتها .. وبعض هذه الأسماء استعملها الأوروبيون في العصور الوسطى وبقيت حتى اليوم مثل نسيج "موسلين" نسبة الى مدينة الموصل .

التحف الخشبية :

كانت صناعة التحف الخشبية من الأعمال البارزة في تاريخ الفنون الإسلامية وقد تأثرت الى حد كبير بالفنون الساسانية والبيزنطية والهندية ثم

تطورت في العصر العباسي حتى أصبح للفن الإسلامي أساليبه الخاصة في هذا الميدان .

المدن العباسية :

أراد العباسيون أن يتخذوا من العراق موئلاً لخلافتهم، فاتخذ عبدالله السفاح "الهاشمية" مقراً للدولة .. ولم يلبث أبو جعفر المنصور أن اختار قرية صغيرة على الضفة الغربية من دجلة لتكون حاضرة الخلافة، وهي بغداد .. ويروي بعض المؤرخين أن كلمة "بغداد" فارسية الأصل، وهي مكونة من كلمتين: "بلغ" ومعناها بالفارسية بستان و"داد" بمعنى يعطي (أي الله) .. وقد سماها المنصور مدينة السلام أو دار السلام، وفي هذا الإسم إشارة إلى الجنة، وقد اقتصر استعمال هذا الإسم في الشؤون الرسمية، وبه ضربت السكة، ولكن الناس عامة كانوا يفضلون اسم "بغداد ."

تخطيط المدينة :

شرع المنصور في بناء حاضرته الجديدة في موضع بغداد القديمة، وأمر باحضار المهندسين والبنائين، والفعلة، والصناع من النجارين، والحدادين، والحفارين، من الشام والموصل والكوفة وواسط وبلاد الديلم، حتى بلغ عددهم مائة ألف على ما ذكره المؤرخون .. وقد وضع المنصور حجر الأساس في الوقت الذي اختاره المنجمون، وكان الطالع في الشمس، وهي في القوس، فأخبره المنجمون بما تدل عليه النجوم من طول بقائها، وكثرة عمارتها، واحتياج الناس إلى ما فيها..

واحتفل الخليفة العباسي ببدء العمل احتفالاً كبيراً حضره رجال الدولة من الأمراء والوزراء والعلماء والقادة والأعيان .. وقد روى الطبري وغيره أن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن يعرف رسمها فأمر أن تخط طريق المدينة بالرماد ثم دخل من موضع كل باب ، ومر في طرقات المدينة ورجالها وهي مخططة بالرماد .. ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حب

القطن ، ويصب عليه النفط وتوقد فيه النار ، فنظر والنار تشتعل ، وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة .. وقد أمر بحفر الأساس مكان الخطوط ، وكان ذلك في سنة ١٤٥هـ .. جعل المنصور مدينة بغداد مستديرة الشكل ، وبنى داره وجامعه في وسطها ، حتى لا يكون أحد أقرب اليه من الآخر وهذا نوع من البناء جديد عند المسلمين ، ويبدو أنهم أخذوه عن الفرس ولم يجعل المنصور حول القصر والجامع بناءً إلا الدار التي بناها للحرس من ناحية باب الشام ، وسقيفة كبيرة ممتده على عمد مبنية بالآجر والجص ، خص قسما منها لصاحب الشرطة وقسما آخر لصاحب الحرس. واتخذ حول ذلك قصور الأمراء ، ورجال الدين ، ودواوين الحكومة ، ومطبخ العامة .. وأخذ البناءون يبنون حول الدواوين ودور الأهالي تتخللها الأسواق ،وجعل للمدينة شوارع رئيسية أربعة تتفرع منها شوارع أخرى ... وأمر المنصور أن يبنى للمدينة سوران : سور داخلي عرضه من أسفله خمسون ذراعا ومن أعلاه عشرون ذراعا ، وسور خارجي ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرض كعرض السور الداخلي ، وليس عليه أبراج وحوله من الخارج خندق عميق تجري فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرفايا ، وحافتا الخندق جعلتا من الجص والآجر ، وفوق الخندق ٣٦١ برجاً .. سمك كل منها خمس أذرع ، وكان بالسور الخارجي أربعة أبواب .

أبواب السور الخارجي :

هي باب الكوفة في الجنوب الغربي ، وباب البصرة في الجنوب الشرقي ، وباب خرسان في الشمال الشرقي وكان على نهر دجلة ويتصل بقنطرة السفن ، كما عرف هذا الباب باسم باب الدولة لإقبال قوة الدولة العباسية من خرسان ، وباب الشام في الشمال الغربي ، وكان قطر مدينة بغداد من باب خرسان الى باب الكوفة ٢٢٠٠ ذراعا ، ومن باب البصرة الى باب الشام كذلك . وبين السورين ستون ذراعا ، وتعرف المسافة بين السورين

"الفيصل" وكان وزن كل لبنة جعفرية (نسبة الى أبي جعفر المنصـور) ممـا استعمل في البناء ١١٧ رطلاً .. وقد ذكر اليعقوبي أن وزن اللبنـة المربعـة التي بلغ طولها ذراعا وعرضها ذراعا مائتا رطل ، واللبنة المنصفة التي يبلغ طولها وعرضها مائة رطل .. وذكر صاحب كتاب "مناقب بغداد" أن الطوب المستعمل هو اللبن والآجر ..

وكان بين السورين دهاليز تصل السور الخارجي بالداخلي ، فإذا دخل أحدهم من باب خرسان مثلا عطف الى يساره في دهليـز طليـت جدرانـه بالجص الأبيض ، وهكذا الحال مع سائر الأبواب .

قصر الذهب :

بنى المنصور قصره المعروف باسم "قصر الذهب" في وسط بغـداد ، وبنى المسجد الجامع قبالته ، وقد بلغت مساحة القصر ١٦٠٠٠٠ ذراع مربع، وساحة الجامع ٤٠٠٠٠ ذراع مربع ويعتبر قصر الـذهب والجـامع مركـز الدائرة ، ومن هذا المركز تفرعت أربعة شوارع رئيسية متجهة نحو أبـواب الأسوار .. وقد أقيمت على جانبي هذه الشوارع الأبنية العالية وجاءت منسقة ومتشابهة في الشكل وأسلوب البناء والجدير بالملاحظة أنه إذا وقف الإنسـان في نهاية أحد شوارع بغداد يمكنه أن يرى قصر الخلافة ، علـى أن بغـداد سرعان ما ازدحمت بالعلماء والتجار والصناع الذين أقبلوا عليها من كل حدب وصوب، فلم يرى بداً من الإقامة خارجها في مكان طيب الهواء ،فبنى في عام ١٥٧هـ قصر الخلد .

القطائع والأرباض :

بعدما فرغ المنصور من بناء مدينته ، أقطـع الأعيـان قطـائع مـن الأرض، رغبة في تخفيف الضغط على بغداد من جهة ، ومكافأة لهم على ما قدموه من خدمات ، وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدحمت بالسـكان .. وقد عرفت كل قطعة باسم الرجل أو المجموعـة التـي تسـكنها .. وجعـل

المنصور أرباض بغداد (ضواحيها) أربعة أقسام ، وعين لكل ربض مسـؤولاً عهد إليه ، عدا مهمة الإشراف، أن يقيم سوقاً محلية تفي بحاجة السكان ، كما أمر أن تخط الشوارع والدروب وتنتظم حولها المباني ، وأن يسمى الشوارع أو الدروب باسم القائد أو الرجل النابه الذي يقيم فيه ..

وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات .

سكك بغداد ودروبها :

أسهب المؤرخون في الكلام على سكك بغداد (أزقتها) ودروبها فنجـد سكة الشرطة ، وسكة المطبق ، وسكة الربيع وذكر المؤرخون أمثال اليعقوبي أن عدد السكك والدروب بلغ ستة آلاف ، وأن عدد الحمامـات بلـغ عشـرة آلاف، والمساجد ثلاثين ألفاً .. ويروي أن أحد بطارقـة الـروم وفـد علـى المنصور ، فأمر الخليفة حاجبه الربيع بن يونس أن يطوف به المدينة ويصعده الأسوار ، ويريه قباب الأبواب والطاقات ليرى ما عليه حاضرة الخلافة مـن الأبهة والعمران .. وبعد انتهاء جولته سأله المنصور عن رأيه فـي مدينتـه فقال: "يا أمير المؤمنين، انك بنيت بناء لم يبنه أحد قبلك وفيه ثلاثة عيوب .. أما أول عيب فبعده عن الماء ولابد للناس من الماء لشفاههم، أما العيب الثاني فإن العين خضرة وتشتاق الى الخضرة وليس في بنائك بستان، وأما العيـب الثالث فإن رعيتك في بنائك، وإذا كانت الرعية مع الملك فشا سره ."

وما أن خرج البطريق حتى أمر المنصور بمد قنـاتين مـن دجلـه ، وغرس العباسية ، ونقل الناس الى الكرخ .

بناء الكرخ :

قام ببناء الكرخ الربيع بن يونس من مال المنصور الخاص ، ويقع هذا الحي غربي بغداد،وحولت الى الكرخ أسـواق المدينـة .. وعمـد الخليفـة المنصور بتصميمها على قطعة من قماش عين عليها مواضع الأسواق، كمـا

عين موضع المسجد الجامع .وقد أفرد لكل حرفة سوقاً خاصة ، ثم أخذ حي الكرخ في الإتساع حتى اتصل بمدينة بغداد .

الرصافة :

حقق بناء بغداد الغرض الذي كان يرمي اليه المنصور ، من منع وصول العدو اليه غير أنه لم يحل دون ما قد يحدث اذا ثار عليه الجند .. الواقع أن الخليفة لم يكن آمناً على نفسه باقامته في بغداد، اذ ثار الجند وحاربوه على أبواب بغداد .. ولما أخمدت ثورتهم أمر ببناء الرصافة .

اتخذت الرصافة في الأصل ثكنات للجيش وسميت: رصافة بغداد ، وبغداد الشرقية ، لوقوعها في الجهة الشرقية من دجلة والمقابلة لبغداد وبنى لها المنصور سوراً وحفر حولها خندقاً ، وجعل فيها ميداناً فسيحاً ، ومسجداً وبستاناً ، وأجرى اليها الماء ، وقد تم بناؤها في خلافة ابنه المهدي ١٥٩هـ .. وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت في الإتساع فظهرت فيها الحدائق والمتنزهات والميادين الواسعة والمباني الفخمة ، حتى بدت بغداد بجانبها كأنها البلد العتيق تجتمع في جزء من محاسن المدينة التي أحدثت في جواره .

اتساع بغداد :

بلغ اتساع بغداد والرصافة والكرخ اتساعا عظيما ، حتى غدت أشبه بمدن صغيرة متلاصقة وأصبحت بغداد من مدائن الشرق في ذلك العصر ، وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة .. وازدهرت فيها الفنون المتنوعة ، وانتشرت منها الحضارة الى سائر أنحاء العالم .. وقد عني المنصور بتنظيف مدينته ، فكانت الأزقة والشوارع والساحات تكنس ويحمل التراب خارج المدينة .. وكانت المياه تؤمن على هور البغال ، وفيما بعد أمر بإيصال الماء الى قصره وأحياء المدينه .

نفقات بناء بغداد :

تكلف بناء بغداد أموالاً طائلة إذ أن المنصور عمل على تحصينها تحصيناً منيعاً وبنى فيها القصور الفخمة ، حتى تحاكي [illegible] العالم الكبرى

جمالاً وقوة ، وخاصة القسطنطينية حاضرة الروم .. وقد بلغت نفقات المدينة وما اليها من أسوار وأبواب ، والقصر ، والمسجد الجامع ، والأسواق ، والقباب ، والخنادق وغيرها ٨١ مليون دينار من الذهب ، وعلى رواية الطبري .. وهكذا تأسست مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور ، وقد حافظت على رونقها حتى سنة ٦٥٦هـ حين خربها التتار بقيادة هولاكو..

علاقة الأتراك بدولة الخلافة في العصر العباسي الأول

يعد أول من استقدم الأتراك للدولة الإسلامية واستخدمهم هو عبيدالله بن زياد حيث دخل البصرة بخلق من بخارى نحو الألفين من خيرة رماة الترك ضمهم إلى جيشه.

ولما انتشر قتيبة بن مسلم في بلاد الأتراك ، ووصل حتى تخوم الصين كان جل اهتمامه هو تعليم هؤلاء القوم مبادئ الإسلام ، لذلك بنى مسجدا في بخارى وآخر في سمرقند ، وغيرهما لنشر الإسلام هناك .

وقبل انتهاء العصر الأموي كان الأتراك قد عرفوا الإسلام، فدخل كثير منهم فيه ، وبقي آخرون ، وطال أهل ما وراء النهر من الأتراك ما طال الفرس في خراسان من العسف ، فكان ذلك من أسباب انتشار الدعوة العباسية في هذه البلاد ونجاحها هناك .

وفي بداية العهد العباسي اتخذ أبو مسلم الخراساني تجاه الأتراك في بلاد ما وراء النهر سياسة تعسفية ، جعلتهم لا يأسفون عليه لما نكل به الخليفة المنصور ، بل دخل من هؤلاء الأتراك جماعة إلى حاضرة الخلافة ، وكان منهم حاجب الخليفة المنصور ، وقد تتابع الاتصال بالأتراك بصور مختلفة ، حيث ظهرت في بلادهم فتن استوجبت من الدولة العباسية أن تقمعها ، وبدأت تلقى الأتراك عن قرب ، وتستقدمهم إلى بلاط الخلافة للإفادة منهم .

ولقد كان للفتنة التي حدثت بين الأمين وأخيه المأمون أثر في ظهور الأتراك بأعداد كبيرة على مسرح أحداث الدولة العباسية . واستطاع الأتراك أن يرتقوا في مناصب الدولة حتى أصبحوا في الحرس الخاص للخليفة المأمون .

أما الخليفة المعتصم الذي كانت أمه تركية فقد دفعته عدة عوامل لاستقدام الأتراك واستخدامهم في الدولة ، من هذه العوامل : الصفات المشتركة بينه وبينهم ، وقام المعتصم بتمييز الأتراك في بلاط خلافته ، فجعل منهم

حرسه الخاص ، وقواد جيوشه ، وأمراء ولايات الدولة ، وبنى بهم مدينة خاصة هي سر من رأى .

ومع نهاية العصر العباسي الأول كان نفوذ الأتراك قد تزايد حتى أصبح أكثر مجلس الشورى الذي يختار الخليفة من الأتراك [1] .

وقد استمر نفوذ الأتراك في العصر العباسي الثاني حتى سنة ٣٣٤ هـ حيث دخل البويهيون ، فقلصوا نفوذ الأتراك ، وأصبح بنو بويه الدعامة التي يعتمد العباسيون عليها .

---

(١) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع لكتاب (فرسان الخلافة في العصر العباسي الأول الذي أعددته رسالة للماجستير بعنوان "الأتراك والخلافة" سنة ١٩٨٩م .

الخليفة المستعصم ووزيره وأثرهما في سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ

أقام رسول الله ﷺ الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنـــورة ثابتـــة الأركان ، فلما رحل إلى الرفيق الأعلى نشأت دولة الخلافة الإسلامية بقيـــادة الخلفاء الراشدين من بعده ﷺ ، ثم حمل رايتها الأمويون إلى دمشق ، ثم انتقل العباسيون بها إلى بغداد ، ثم سامراء ، ثم بغداد مرة أخرى حتـــى ســـنة ٦٥٦ هـــ ، وقد بقيت هذه الدولة عبر هذه السنين الطويلة تعصف بها رياح الغــدر من داخلها أحيانا ، ويواجهها أعداء الإسلام من خارجها أحيانا أخرى ، ومـــع كل هذا بقيت متماسكة .

وكان منصب الخليفة الذي يحرس الدين ويسوس الدنيا رمزا من رموز وحدتها ، يعاونه وزيره ويشد من أزره[1] من أجل تحقيق هذا الهدف النبيـــل . ومن هنا كان منصب الوزير واختياره من الأهمية بمكان .

ثم طمع الصليبيون [2] في أرض الإسلام ، وانتهزوا حالة الضعف التي تمر بها الأمة ، فأغاروا عليها ، وأقاموا فيها على حين غرة ، ثم على ضعف من أبناء المسلمين ، وشـــاء الله أن يخرجوا عن هذه الديار إلى حين ، ثـــم عادوا من جديد .

ثم اجتاح المغول [3] بلاد الإسلام من الشرق ؛ يريدون السيطرة علـــى العالم آنذاك ، وكان أخطر عقبة أمامهم هي حاضـــرة الخلافـــة الإسلامية ،

---

(1) قال تعالى على لسان موسى عليه السلام : (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري)

(2) الصليبيون قوم من أوربا رفعوا الصليب راية لهم واجتمعوا حولها بغرض الإغارة على ديار الإسلام والسيطرة على ما وهبهم الله من خيرات وممتلكات . الدكتور محمد حلمي محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي– ط . ١٩٨٣ م – ص ٢١٦ .

(3) المغول : قوم سكان براري ، وكانوا يعيشون بأطراف بلاد الصين ، وهم مشهورون بالشر والغدر .وأكثر المؤرخين مثل ابن الأثير والذهبي وابن كثير وابن تغرى بردي وغيرهم يسمونهم التتار ، أو التتر ، والحق أن التتار جزء من المغول ، والسبب في هذا الخلط بين الاسمين هو أن=

والخليفة العباسي في بغداد ، فاهتموا بالأمر ، وكرسوا لـــه كـل جهـودهم وطاقاتهم حتى وصلت جحافلهم بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وأحاطوا حاضرة الخلافة من جانبيها ، ثم ما لبثوا أن دخلوها ، وقضوا على الخليفة ومنصب الخلافـة الذي كان يجمع المسلمين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وبقيت الدولة الإسلامية بلا قيادة نحو ثلاث سنوات ، اضطربت فيهـا أحوالهـا السياسـية والاقتصادية والاجتماعية والفكريـة ، إلى أن حاول المماليك في القاهرة إيقاف هذا الزحف الهمجي الغاشم ، وشرذموهم ، وأقاموا خليفة جديدا للمسلمين مـن بني العباس، وجعلوا القاهرة حاضرة الخلافة بدلا من بغـداد ، ثـم أعـادوا الاستقرار للبلاد الإسلامية من جديد وواجهوا المغول بقوة وصلابة ، فلم يتحقق هدفهم الثالث الذي كان مقدمة للسيطرة على العالم ، لكن الله غالب على أمـره قد جعل الله لكل شيء قدرا .

ولقد كان التأريخ لهذه الفترة غصة في حلوق المـؤرخين ، بـل كـان بعضهم يتردد في الكتابة مع معاصرتهم للأحداث ، خشـية أن يكـون ناعيـا للإسلام [(١)] . لكن الحقيقة التي لامراء فيها هي أن التاريخ لابد أن يستفاد منه ،

=قبائل التتار هي التي ظهرت على ساحة الأحداث منذ القرن السادس الميلادي وسيطرت على المغول نحو ستة قرون حتى قفز جنكيز خان متزعما المغول في القرن الثاني عشر للميلاد ، فقضى على التتار ، وأسس امبراطورية مغولية ، غير أن اسم التتار الذي سبقت شهرته اسم المغول بستة قرون قد غلب على التسمية الجديدة ، وهذا الذي جعل المؤرخين يطلقون التتار على كل المغول .. راجع تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٤٦٧. والدكتور سعد محمد حذيفة مسفر الغامدي: سقوط الخلافة العباسية – ط . الثانية ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م – ص ٥٣ ، ٥٤.والسلاطين في المشرق العربي ص ٣٥

(١) من ذلك ما قاله المؤرخ ابن الأثير في (كتابه الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ١٢ ، ١٣) في أحداث سنة ٦١٧ هـ : " لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم ، منها ظهور هؤلاء التتر يعني المغول – قبحهم الله، أقبلوا على المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها " وقال أيضا : " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن=

فإذا طرحناه وراء ظهورنا خوفا من نعي الإسلام أو حتى لا نسرد أياما ظلـم فيها المسلمون ، فنجتر مرارة الأسى والألم، يكون ذلك إهدارا لمعنى التاريخ، فالأمة الواعية هي التي تفيد من تاريخها ؛وتنقب عن أسباب المشكلات التـي حلت بها، وتوصف العـلاج المناسـب لـذلك، لإنـارة حاضـرها، ورسـم مستقبلها،وهذه هي أهم فوائد التاريخ .

وفي هذه الدراسة الموجزة سأحاول إلقاء الضوء على شخصية الخليفة المستعصم ووزيره ابن العلقمي ، باعتبارهما قمة الحياة السياسية ، ورمز وحدة الأمة ، وبصلاحهما يصلح أمر الناس ويستقيم حـالهم ، وتتوحـد كلمـتهم ، ويهابهم أعداؤهم .

ثم أحاول بإذن الله تعالى بيان أثر هاتين الشخصيتين في ضياع منصب الخلافة ، وعظم المسئولية التي يتحملانها في هذا الشأن .

ولئن كانت قد تعددت أسباب سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ ، ما بين حالة الاضطراب والفتن التي مرت بها البلاد على يد الأمراء في أنحـاء الدولة ، إلى المشكلات الاقتصادية ، إلى الصـراع المـذهبي ، إلـى وجـود الصليبيين في بلاد الإسلام منذ زمن ، إلى الهمجية المغولية وقوتهم الغاشمة ، لكن الأثر الأكبر يرجع لهذين الشخصين اللذين كان بمقدورهما تغيير مجـرى الأحداث لو لم تكن فيهما صفات تؤهلهما إلى ترك الأمور ، وتضييع الدولة .

وقد دفعني للكتابة في هذا الموضوع ضرورة التأكيـد علـى أسـباب الضعف وعوامل القوة التي تفيد منها الأمة في حاضرها ومستقبلها ، وأحسـب

=يكتب نعي الإسلام والمسلمين ؟... ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي ... إن هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها " .

وقال السيوطي في (تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٤٦٧) في خبرهم : " هو حديث يأكل الأحاديث،وخبر يطوى الأخبار،وتاريخ ينسى التواريخ ، ونازلة تصغر كل نازلة، وفادحة تطبق الأرض، وتملؤها ما بين الطـول والعرض" .

أن أمة الإسلام تسعى جاهدة نحو نهضتها في عالم اليوم ؛ لإثبات وجودها ، ومواجهتها لتحديات العولمة المعاصرة ، وهي تمثل خمس سكان المعمورة ، الخمس الموحد في أهدافه وتوجهاته وسلوكه ومشاعره ، وبالتالي فهي أولى بالريادة من غيرها .

وفضلا عن ذلك فإن المكتبة العربية الإسلامية في أمس الحاجة لمثل هذه الموضوعات الحية التي تربط ماضي الأمة بحاضرها ومستقبلها ، وتفتح بابا جديدا للنظر الواعي الهادف إلى التراث الإسلامي .

ولما رجعت إلى مصادر الموضوع وجدت أن بعضها ينقل عن بعض بالحرف الواحد ، مثل ابن العماد في كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب " الذي كان ينقل نص الذهبي من كتابه " العبر في خبر من غبر " ، ومثل السيوطي في " تاريخ الخلفاء " الذي كان ينقل عن الذهبي أيضا . وربما كان الأمر سهلا إذا وقف عند هذا الحد ؛ لأن النص الأقدم هو المعتمد بطبيعة الحال ، ما لم يقدم المرجع الحديث زيادة تستحق الاهتمام ، لكن الذي زاد من المتاعب أن بعض المؤرخين كان ينقل كلاما مبتورا يحتاج إلى بيان ، مما جعلني أجمع بين النصوص وأحللها وأناقشها وفقا للمنطق والواقع التاريخي ، إلى أن وفقني الله تعالى للوصول بالموضوع إلى ما أرجو أن يكون قد أجاب على الأسئلة المطروحة سلفا ، وأرجو أن يكون البحث قد حقق الهدف المرجو منه بعون الله وتوفيقه .

ظهور المغول وإغارتهم على الشرق الإسلامي ومحاولات التصدي لهم :

بدأت علاقة المغول بالمشرق الإسلامي منذ سنة ٦٠٦ هـ ، حين اتجهت جحافلهم إلى بلاد ما وراء النهر ، التي كانت تحت حكم خوارزم شاه محمد ، فأرسل هذا الحاكم إلى أهالي فرغانة والشاش وكاسان وغيرها يأمرهم بالجلاء إلى سمرقند وغيرها فرارا من المغول الذين لا طاقة له بهم.

وفي سنة ٦١٥ هـ أرسل جنكيز خان لخوارزم شاه رسلا وهدايا . وطلب منه أن يسمح للتجار المغول بدخول بلاده والتجول فيها . فوافق خوارزم شاه .

واستمر الحال على المهادنة إلى أن وصل بعض تجار المغول إلى بلاد ما وراء النهر ، فشك ينالتشق - خال خوارزم شاه ونائبه على بلاد ما وراء النهر - ورأى أنهم جاءوا بزي التجار وما قصدهم إلا التجسس ، فقبض عليهم ، وأخذ أموالهم ، فتوجه جنكيز خان إلى بلاد ما وراء النهر يسطو عليها واحدة تلو الأخرى ، حتى وصل إلى بخارى فخربها . ثم قسم جيوشه إلى أربعة فرق ، ليتمكنوا من السيطرة التامة على جميع بلاد ما وراء النهر [1] .

وتوالت الإغارات المغولية على الشرق الإسلامي ، حتى أسقطوا الإسماعيليين في خراسان ، بعد إسقاطهم للخوارزميين في بلاد ما وراء النهر ، ثم اتجهوا ناحية ضواحي بغداد ، فوصلوا إلى أربيل سنة ٦٣٩ هـ ، وحاصروها ، ثم دخلوها عنوة ، وقتلوا أهلها ، وأحرقوا جثثهم .

محاولات الخلفاء العباسيين للتصدي للمغول :

تمثلت محاولات الخلفاء في مواجهات عنيفة أحيانا ، ومحاولات للدفاع ضعيفة أحيانا أخرى ، وفيما يلي نركز على محاولات الخليفة الناصر ، ثم الخليفة المستنصر ، ثم آخر الخلفاء وهو المستعصم .

أ - الخليفة الناصر وعلاقته بالمغول :

يرى بعض المؤرخين أن الخليفة الناصر كان قد أرسل إلى المغول ليغيروا على الدولة الخوارزمية المسلمة ؛ لشحناء كانت بينهما ، غير أن هذه الفكرة كانت مجرد إشاعة لا أساس لها من الصحة ، وكان سبب ترددها بين

---

[1] تاريخ الخلفاء ج: ١ ص: ٤٦٧ - ٤٧١ . وعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي (١٠٨٩ هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب - دار الكتب العلمية - بيروت - ج ٣ ص ٢٦٤ .

المؤرخين ما تردد من محاولات الخوارزميين السيطرة على بعض أراضي الخلافة العباسية .

وقد ناقش الدكتور الغامدي هذه الفكرة باستفاضة بعد عرض ما جاء عنها في المصادر العربية والفارسية والصينية ، وتبين أنها إشاعة لا تملك دليلا مقنعا عن صحتها ، وأن الخليفة الناصر بريء مما نسب إليه من تهمة تأليب المغول على الخوارزميين للقضاء على دولتهم [1] .

ويشهد لهذا الاتجاه ما قام به الخليفة الناصر سنة ٦١٨هـ حين بلغه ما قام به المغول من غارات غاشمة على الخوارزميين ، ثم توجههم إلى الجنوب الغربي لخراسان ، وزحفهم في اتجاه أربيل ؛ مما حدى بسكان الموصل إلى التفكير في ترك ديارهم والهجرة _ حيث قام الخليفة الناصر بتحصين بغداد ، وأمر الناس بالتوجه إلى المساجد للصلاة والقنوت والدعاء الدائم على المغول أن يصرف الله شرهم ويدمرهم ، وينصر المسلمين عليهم ، واستنجد الأمراء الأيوبيين في الشام ، وأرسل إلى أمير أربيل أمير الموصل يحثهما على الثبات[2].

ب - الخليفة المستنصر بالله يواجه المغول :

لما علم الخليفة العباسي المستنصر بالله ما فعله المغول في أربيل ثلاثة آلاف فارس تحت إمرة شمس الدين أرسلان تيكين ، ثم أصدر الخليفة أوامره بعدم الذهاب إلى الحج في هذا العام ، بعد استفتاء الفقهاء في ذلك ، حيث أفتوا بتفضيل الجهاد في سبيل الله في هذه الظروف على أداء الحج .

---

(١) راجع في هذا مناقشات الدكتور الغامدي للقضية في كتابه سقوط الخلافة العباسية – ص ١٦٧ – ١٨٠ .

(٢) السابق ص ١٧٢ .

وأخذ الخليفة المستنصر في تحصين بغداد وإعمارها ، فأعاد تعمير سورها وخندقها ، ووضع المجانيق على الأبراج ، وأحكم تحصين المدينة من جميع جهاتها .

وأدرك العلماء والفقهاء في بغداد خطورة الموقف ، فتقدموا للتدريب على استعمال السلاح ورمي السهام ، وتبعهم عامة الناس ، واستنفرت بغداد كلها .

وعاود المغول الكرة على أربيل ، ثم زحفوا منها إلى دقوق ، فقتلوا وأسروا وسبوا وخربوا ، فخرج الخليفة المستنصر بنفسه – عندما علم بخبرهم –، وتبعه الأمراء والقادة ،ووصلوا إلى دقوق ،واستردوها من المغول، كما استردوا الأسرى .

ولم يمض سوى عام حتى توفي هذا الخليفة (سنة ٦٤٠هـ) ، وكتمت الحاشية خبر وفاته يومين ، حتى يعينوا من يرضونه ، فاتفقوا على اختيار المستعصم ، الذي أصبح آخر خلفاء بني العباس في بغداد .

ج – استمرار غارات المغول بعد وفاة المستنصر ومحاولات المستعصم لمواجهتهم :

استمرت إغارات المغول على ضواحي بغداد والبلاد التابعة للخلافة العباسية في عهد الخليفة المستعصم ، ولم تكن تجد هذه القوات المغولية مقاومة تذكر إلى أن وقع ما قدره الله من وصول جحافلهم إلى بغداد ، ومن أمثلة إغاراتهم : في سنة ٦٥٠ هـ وصلوا إلى ديار بكر فقتلوا وسبوا وعملوا عوائدهم [١].

([١]) العبر في خبر من غبر : لمحمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (٧٤٨ هـ) – مطبعة حكومة الكويت – الكويت – سنة ١٩٤٨ – الطبعة الثانية – مصورة– تحقيق :د.صلاح الدين المنجد – ج ١ ص ١ .

وفي سنة ٦٥٤ هـ أغاروا على قلعة الألموت وغيرها وعاثوا بنواحي الري[١]. وفي سنة ٦٥٥ هـ وصلوا إلى الموصل وخربوا بلادها [٢] .

ولقد حاول الخليفة المستعصم إيقاف هذا الزحف حين " تواترت الأخبار بوصول عساكر هولاكو إلى بلاد أذربيجان قاصدة بلاد الشام ، فوردت قصاد الخليفة بأن يصطلح الملك الناصر مع الملك العزيز صاحب مصر ويتفقا على قتال التتار فأجاب إلى ذلك وعاد إلى الشام " [٣]،غير أن هذا الصلح لم يتبعه تحرك جاد لمواجهة قوات هولاكو.

حصار بغداد وتخريبها وسقوط الخلافة :

منذ تولى المستعصم الخلافة والمغول يتقدمون في حروبهم ضد المسلمين في شرق الخلافة ، ومحاولات الناصر والمستنصر لمواجهة المغول لم تزدهم إلا عزما وتصميما على إنهاء مشروعهم التوسعي ، وقد أدرك بعض المنتسبين إلى دولة الخلافة الإسلامية خطورة الأمر ، وضعفت همتهم ، فاتصلوا بالمغول ؛ ربما مصانعة لهم ، ومن هؤلاء حاكم الموصل ، والوزير ابن العلقمي ، وغيرهما.

ولما بلغ الخليفة المستعصم خبر وصول المغول إلى همدان ، وعزمهم على قصد العراق ، اجتمع برجال بلاطه ، فأشار الوزير ابن العلقمي بمهادنة المغول ، وإرسال الهدايا مصانعة لهم ، وخالف هذا الرأي القائد الدوادار الصغير ، وآخرون ، وقالوا : إن الوزير إنما يريد مصانعة ملك المغول بما يبعثه إليه من الأموال ، وأشاروا بأن يبعث الخليفة بشيء يسير ، فأرسل

---

(١) العبر في خبر من غبر ج: ٥ ص: ٢١٦

(٢) العبر في خبر من غبر ج: ٥ ص: ٢٢١ . وشذرات الذهب ج: ٣ ص: ٢٦٧.

(٣) عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي (١٠٨٩ هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب – دار الكتب العلمية – بيروت – ج ٣ ص ٢٦٤ –

الخليفة شيئا من الهدايا ، احتقرها هولاكو ، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه الوادار الصغير ، فرفض الخليفة ذلك ، فتقدمت جيوش المغول صوب بغداد[1].

وصل المغول بجيش جرار بلغ نحو مائتي ألف محارب ، يقدمهم هولاكو إلى بغداد في أوائل شهر المحرم سنة ٦٥٦ هـ ، واستقر هذا الجيش على الجانبين الشرقي والغربي لبغداد [2] .

وكان جيش الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت لا يتجاوز عشرة آلاف فارس [3] ، وكانوا في حالة من البؤس والفقر ، جعلت بعضهم يستجدي الناس في الأسواق ، وعلى أبواب المساجد ، حتى رثاهم الشعراء ، كما رثوا الإسلام وأهله[4] .

وكان قد التحق اثنان من قادة جيش الخلافة العباسية هما (أيبك الحلبي، وسيف الدين قيلج) ، كان قد أرسلهما الدوادار الصغير ليكشفا له الطريق التي يسلكها أثناء سيره ، لمقابلة هولاكو ، لكنهما هجرا موقعهما العسكري ، وهربا إلى المغول .

وقدمت إلى هولاكو أمداد صاحب الموصل ، لمساعدة المغول على البغاددة ، كما جاءت هذه الأمداد مشفوعة بالميرة والهدايا والتحف ، وكل ذلك بسبب خوف صاحب الموصل على نفسه ، ومصانعة المغول قبحهم الله [5] .

وكانت بغداد قد نصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئا ، في حين قام المغول بحفر الخنادق حول أسوار بغداد ؛ لتطويقها من كل جانب ، ثم شرعوا في بناء

---

[1] البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

[2] العبر ج ٥ ص ٢١٦ . وشذرات الذهب ج ٣ ص ٦٤ .

[3] شذرا الذهب ج ٣ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

[4] البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

[5] البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ - ٢٠٤ .

المنجنيقات ، وتجهيز الآلات الحربية الخاصة بقذف الـنفط ، والعربـات ذات العجلات التي تطلق الأسهم من طريقها ، ونصبت هذه الآلات والمعدات أمـام سور بغداد . وتقدم عسكر الخليفة لمواجهة هولاكو وجيشه ، فهـزم العسـكر المغول بغداد يوم عاشوراء [1] .

" وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب ، حتـى اصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه ، وكانـت مـن جملـة حظاياه ، وكانت مولدة تسمى عرفة جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة ، فانزعج الخليفة من ذلك ، وفزع فزعا شديدا وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه ، فإذا عليه مكتوب ، إذا أراد الله إنفـاذ قضـائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم ، فامر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز ، وكثرت الستائر على دار الخلافة " [2] .

ثم دارت اتصالات بين هولاكو والخليفة ، أكد فيها الخليفة لهولاكو أنه لن يستطيع القضاء عليه ، في حين استهان هولاكو به ، وطالبه بالمثول بـين يديه ؛ وانتهى الأمر بأن " أشـار ابن العلقمى على المستعصم بالله أنى أخرج إليهم في تقرير الصلح ، فخرج الخبيث ، وتوثق لنفسه ، ورجـع فقـال : إن الملك قد رغب في أن يزوج بنته بابنك الأمير أبي بكر ، وأن تكون الطاعة له، كما كان أجدادك مع الملوك السلجوقية ، ثم يترحل ، فخرج إليه المستعصم في أعيان الدولة، ثم استدعى الوزير العلماء والرؤساء ليحضروا العقد بزعمـه ، فخرجوا ، فضربت رقاب الجميع ، وصار كذلك ، تخرج طائفة بعد طائفـة ، فتضرب أعناقهم ، حتى بقيت الرعية بلا راع .

---

[1] تاريخ الخلفاء ج: ١ ص: ٤٧١ .

[2] البداية والنهاية:لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء (٧٧٤ هـ) – مكتبة المعارف – بيروت – ج١٣ ص ٢٠١.

ثم دخلت حينئذ التتار بغداد ، وبذلوا السيف ، واستمر القتل والسبى نيفا وثلاثين يوما ، فقل من نجا ، فيقال : إن هولاكو أمر بعد القتلى ، فبلغوا ألف ألف وثمان مئة ألف وكسر ، فعند ذلك نودى بالأمان ، ثم أمر هولاكو بناجونوين ، فضربت عنقه ؛ لأنه بلغه أنه كاتب الخليفة ، وأرسل رسولا إلى الناصر صاحب الشام يهدده إن لم يخرب أسوار بلاده [1] .

ولكن كيف قتل الخليفة ؟

لما وصل التتار وزعيمهم هولاكو إلى بغداد ، وأشار ابن العلقمي على المستعصم بالله أن اخرج إليهم في تقرير الصلح ، ثم بين له بعد ذلك أن الملك هولاكو يرغب في مصاهرته ، مقابل أن تكون الطاعة له ، ثم يترحل ، " خرج إليه المستعصم في أعيان الدولة، ثم استدعى الوزير العلماء والرؤساء ليحضروا العقد بزعمه ، فخرجوا ، فضربت رقاب الجميع " وأما الخليفة " فإن الكافر هلاكو أمر به وبولده فرفسا حتى ماتا وذلك في آخر المحرم، وكان الأمر أشغل من أن يوجد مؤرخ لموته أو مواراة جسده " [2] .

ويرى ابن كثير أن المصالحة التي أرادها هولاكو : "على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة ، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان .

فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسا ، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين ، وأنزل الباقون عن مراكبهم ، ونهبت ، وقتلوا عن آخرهم .

---

[1] العبر في خبر من غبر ج: ٥ ص: ٢٢٥ ، ٢٢٦ . و البداية والنهاية ج: ١٣ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ . وشذرات الذهب ج: ٣ ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

[2] شذرات الذهب ج: ٣ ص ٢٧١ .

وأحضر الخليفة بين يدي هلاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت ، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجة نصير الدين الطوسي ، والوزير ابن العلقمي وغيرهما ، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة ، فأحضر من دار الخلافة شيئا كثيرا من الذهب والحلى والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة

وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة ، وقال الوزير : متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاما أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك !! . وحسنوا له قتل الخليفة ، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله،ويقال:إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي والمولى نصير الدين الطوسي ... فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فتقلوه رفسا وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه خافوا ان يؤخذ بثأره فيما قيل لهم وقيل بل خنق ويقال بل أغرق فالله أعلم " [١]

" ... وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كانها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس وهم في خوف وجوع وذلة وقلة " [٢] .

لقد قتل هولاكو الآلاف المؤلفة من العلماء والأعيان والعامة وعلى رأسهم جميعا خليفة المسلمين المستعصم في بغداد ، حتى أصبحت حاضرة الخلافة كأن لم تغن بالأمس،وعشش الخراب في كل أركانها "وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها ....

وكان آخر خطبة خطبت ببغداد أن قال الخطيب في أولها : الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار .

وقال تقي الدين بن أبي اليسر قصيدته في بغداد وهي :

---

[١] البداية والنهاية ج: ١٣ ص ٢٠١ .

١٤ البداية والنهاية ج: ١٣ ص ٢٠٢ .

لسائل الدمع عن بغداد أخبار فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت به المعالم قد عفاه أقفار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر وللدموع على الآثار آثار
يا نار قلبي من نار لحرب وغى شبت عليه ووافى الربع إعصار
علا الصليب على أعلى منابرها وقام بالأمر من يحويه زنار
وكم حريم سبته الترك غاصبة وكان من دون ذاك الستر أستار
وكم بدور على البدرية انخسفت ولم يعد لبدور منه أبدار
وكم ذخائر أضحت وهي شائعة من النهاب وقد حازته كفار
وكم حدود أقيمت من سيوفهم على الرقاب وحطت فيه أوزار
نادت والسبي مهتوك تجرهم إلى السفاح من الأعداء ذعار" [1]

ويقول ابن كثير : " ومالوا – يعني المغول – على البلد – يعني بغداد – فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الابار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون ، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الابواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وكذلك في المساجد والجوامع والربط ولم ينج منهم احد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانا بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم " [2].

---

[1] شذرات الذهب ج: ٣ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

[2] البداية والنهاية ج: ١٣ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

الخليفة المستعصم ومسؤولية سقوط الخلافة

" المستعصم بالله أمير المؤمنين ، آخر خلفاء بني العباس بالعراق رحمه الله وهو أبو أحمد عبد الله ابن المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله ينتهي نسبه إلى عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي " (١) .

مولده ونشأته :

ولد المستعصم سنة ٦٠٩ هـ (٢) ، وأمه أم ولد اسمها هاجر (٣) . ونشأ في بلاط الخلافة مهتما بالعلم.

وقد استجاز له – يعني للمستعصم – الحافظ ابن النجار مع جماعة من مشايخ خراسان منهم المؤيد الطوسي ، وأبو روح عبدالعزيز بن محمد الهروي، وأبو بكر القاسم بن عبد الله بن الصفار ، وغيرهم،وحدث عنه جماعة منهم مؤدبه شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن علي بن محمد بن النيار (٤) وأجاز هو للإمام محيي الدين بن الجوزي ، وللشيخ نجم الدين البادرائي،وحدثا عنه بهذه الإجازة (٥).

قال السيوطي : " وروى عنه بالإجازة جماعة منهم النجم البادرائي ، والشرف الدمياطي ، وخرج له الدمياطي أربعين حديثا ، رأيتها بخطه " (٦) .

---

١ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤٠٤ .

٢ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤٠٤ .

٣ تاريخ الخلفاء ج: ١ ص ٤٦٤

٤ قال الذهبي وتابعه ابن العماد : " الذي لقبه الختمة " . العبر ج ٥ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ . وشذرات الذهب ج ٣ ص ٢٧٢ .

٥ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤٠٤ .

٦ تاريخ الخلفاء ج: ١ ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

وقد كان حسن الصورة جيد السريرة صحيح العقيـدة ، مقتـديا بأبيـه المستنصر في المعدلة وكثرة الصدقات وإكرام العلماء والعبـاد [1].قـال عنـه الذهبي : "كان حليما كريما سليم الباطن قليل الرأي حسن الديانة مبغضا للبدعة في الجملة "[2] . وقال السيوطي : " كان كريما حليما سليم الباطن حسن الديانة . قال الشيخ قطب الدين كان متدينا متمسكا بالسنة كأبيه وجده ولكنه لـم يكـن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة" [3]. وقال ابن كثير:"قد كان رحمـه الله سنيا على طريقة السلف،واعتقاد الجماعة،كماكان أبوه وجده" [4].

ثم قال ابن كثير: " ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه ، ومن جملة ذلك أنه استحل الوديعة التي استودعه إياهـا الناصـر داود بـن المعظم ، وكانت قيمتها نحوا من مائة ألف دينار فاستقبح هذا من مثل الخليفـة وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير بل من اهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك كما قال الله تعالى : (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما) [5] . وقال السيوطي : " والتتار جائلون فـي الـبلاد ، وشـرهم متزايد، ونارهم مستعرة ، والخليفة والناس في غفلـة عمـا يـراد بهـم .... والمستعصم تائه في لذاته ، لا يطلع على الأمور ، ولا له غرض في المصلحة ، وكان أبوه المستنصر قد استكثر من الجند جدا ، وكان مع ذلك يصانع التتار ويهادنهم ويرضيهم ، فلما استخلف المستعصم ، كان خليا من الرأى والتدبير ، فأشار عليه الوزير بقطع أكثر الجند ، وأن مصانعة التتار وإكرامهم يحصل به المقصود، ففعل ذلك " [6] .

---

[1] البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤٠٤ .

[2] العبر ج ٥ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

[3] تاريخ الخلفاء ج: ١ ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

[4] البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤٠٤ .

[5] البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤٠٤ .

[6] تاريخ الخلفاء ج: ١ ص: ٤٦٦ .

وقال ابن الطقطقا : " كان المستعصم رجلا خيرا متدينا ، لين الجانب ؛ سهل العريكة ، عفيف اللسان ، حمل كتاب الله تعالى ، وكتب خطـا مليحـا ، وكان سهل الأخلاق ، وكان خفيف الوطأة ، إلا أنه كان مستضـعف الـرأي ، ضعيف البطش ، ضعيف الخبرة بأمور المملكة ، مطموعا فيه ، غير مهيـب النفوس ، ولا مطلع على حقائق الأمور ، وكان زمانه ينقضي أكثـر بسـماع الأغاني ، والتفرج على المساخرة ، وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتـب جلوسا ليس فيه كبير فائدة ..."[1].

وتثبت المراجع الصينية أن الخليفة المستعصم كان يسمع الموسـيقى ؛ ليخفف آلام صداع رأسه[2].

وقال ابن العماد : "شرعت التتار في فتح البلاد الإسلامية والخليفة غافل في خلوته ولهوه "[3].

وقال الذهبي : " ختم له بخير ؛ فإن الكافر هولاكو أمر به وبولده فرفسا حتى ماتا ، وذلك في آخر المحرم ،وكان الأمر أشغل من أن يوجـد مـؤرخ لموته أو مواراة جسده ، وبقي الوقت بلا خليفة ثلاث سنين"[4] .

وبويع له بالخلافة –عند موت أبيه[5] – في العشرين من جمادي الأولى سنة أربعين [6] .

---

(1) محمد بن علي بن الطقطقا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية – بيروت – سنة ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م – ص ٣٣٣

(2) الغامدي : سقوط الخلافة ص ٢٠٢ .

(3) شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٥٥ .

(4) العبر ج ٥ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ . وشذرات الذهب ج ٣ ص ٢٧٢ .

(5) تاريخ الخلفاء ج: ١ ص ٤٦٤

(6) العبر ج ٥ ص ٢٣٠،٢٣١ .وشذرات الذهب ج ٣ ص ٢٧٢.قال ابن كثير في البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤٠٤ :" كان مقتله في يوم الاربعاء الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ ـفيكون عمره يوم قتل سبعا وأربعين سنة رحمه الله تعالى"

لقد صار منصب الخليفة شرفيا ، وفقد مضمونه منذ فترة طويلة منذ تحكم الأتراك في تولية من يشاءون ، وعزل من يشاءون [1] ، وأصبحت المصالح الشخصية تحكم طريقة تولي الخليفة الجديد ، ولقد كانت طريقة تولية المستعصم منصب الخلافة شاهدا على ذلك ؛ حيث ذهب شرف الدين إقبال الشرابي – وهو أكبر رجل في بلاط الخليفة المستنصر آنذاك – ، ذهب بعد يومين من وفاة الخليفة إلى ابنه المستعصم ، فأخبره بوفاة والده ، وطلب منه قبول منصب الخلافة ، فوافق على ذلك ، غير أن أقرباءه رفضوا الانصياع لأمر الشرابي ، ورفضوا مبايعة المستعصم ، فأجبروا على المبايعة بضغط من رجال البلاط ، الذين احتالوا عليهم ، وأدخلوهم واحدا تلو الآخر على المستعصم ، بإيهام كل واحد منهم أن بقية أقربائه قد بايعوا ، وأودع في السجن كل من رفض البيعة ، ومنع عنهم الطعام والشراب ، حتى خضعوا أخيرا لما عينه إقبال الشرابي [2] .

" وكان للمستنصر – يعني والد الخليفة المستعصم – أخ يعرف بالخفاجي يزيد عليه في الشجاعة والشهامة ، وكان يقول إن ملكني الله الأمر لأعبرن بالجيوش نهر جيحون وأنتزع البلاد من التتار وأستأصلهم ، فلما توفي المستنصر لم ير الدويدار والشرابي والكبار تقليد الخفاجي الأمر وخافوا منه ، وآثروا المستعصم للينه وانقياده ؛ ليكون لهم الأمر ، فأقاموه " [3].

" ثم ركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي ، فأهلك الحرث والنسل ، ولعب بالخليفة كيف أراد ، وباطن التتار وناصحهم وأطعمهم

---

[1] ظهر هذا الأمر منذ بداية العصر العباسي الثاني ، حين سيطر الأتراك على بلاط الخلافة ، وأصبحوا قوة لا يستهان بها . راجع : الأتراك والخلافة حتى نهاية العصر العباسي الأول – رسالة ماجستير للباحث – سنة ١٩٨٩ م – بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة .

[2] سقوط الخلافة العباسية ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

[3] تاريخ الخلفاء ج: ١ ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

في المجئ إلى العراق وأخذ بغداد،وقطع الدولة العباسية ليقيم خليفة من آل علي، وصار إذا جاء خبر منهم كتمه عن الخليفة، ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلى أن حصل ما حصل "[1].

وقال ابن كثير : " قتلته التتار مظلوما مضطهدا في يوم الأربعاء رابع عشر صفر من هذه السنة وله من العمر ستة وأربعون سنة وأربعة أشهر ، وكانت مدة خلافته خمسة عشر سنة وثمانية أشهر وأياما فرحمه الله وأكرم مثواه وبل بالرأفة ثراه ، وقد قتل بعده ولداه وأسر الثالث مع بنات ثلاث من صلبه ، وشغر منصب الخلافة بعده . ولم يبق في بني العباس من سد مسده فكان آخر الخلفاء من بني العباس الحاكمين بالعدل بين الناس ومن يرتجي منهم النوال ويخشى البأس وختموا بعبد الله المستعصم كما فتحوا بعبد الله السفاح ، بويع له بالخلافة وظهر ملكه وأمره في سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، بعد انقضاء دولة بني أمية كما تقدم بيانه ، وآخرهم عبد الله المستعصم ، وقد زال ملكه ، وانقضت خلافته في هذا العام – سنة ٦٥٦هـ –، فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة وزال ملكهم عن العراق والحكم بالكلية مدة سنة وشهور في أيام البساسيري بعد الخمسين وأربعمائة ثم عادت كما كانت وقد بسطنا ذلك في موضعه في أيام القائم بأمر الله ولله الحمد "[2].

يؤكد المؤرخون عدة حقائق عن الخليفة المستعصم نوجز أهمها فيما يلي :

أولا : أن المستعصم قبل أن يتولى أمر الخلافة كان على علم بالتتار ، وبوجودهم شرقي الخلافة ، وإغارتهم على بعض مناطقها ، وكان أبوه يصانعهم ، مع حزم فيه وذكاء ، وكان عمه المعروف بالخفاجي يرى أنه لو آلت الخلافة إليه لذهب إلى هؤلاء التتار واستأصل شأفتهم .

---

[1] تاريخ الخلفاء ج: ١ ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

[2] البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

فلماذا سكت الخليفة عن هؤلاء التتار حتى فاجأته جحافلهم في بغداد ؟

هل كان المستعصم لا يعبأ بأمر التتار ؟ أم كان مهونا من شأنهم ؟ أم حجب وزيره عنه أخبارهم ؟ . ربما كان كل ذلك أو بعضه ، ولعل صفاته التي سنتعرض لها الآن بشيء من التوضيح من أهم الأسباب التي تضاف إلى ما سبق ، والتي جعلت التتار تفجأه في عقر داره بغداد دون استعداد للمواجهة المحتومة .

ثانيا : ذكر المؤرخون عن المستعصم أنه كان (عالما ، متمسكا بالسنة ، مبغضا للبدعة ، حسن الديانة ، معروفا بالحلم والكرم وسلامة الباطن) وهذه كلها صفات نبيلة

غير أنهم أضافوا إليها صفات أخرى غير مستحسنة ، فقالوا عنه : (كان عنده غفلة ، وعدم تيقظ ، وضعف همة ، وقلة رأي ، وحب للمال ، واستحلال للودائع ، وعدم حزم ، مع ترك أمر البلاد والعباد في يد الوزير ابن العلقمي) .

فهل تصلح هذه الصفات مجتمعة في حاكم ؟

إن العلم والحلم والكرم وحسن الديانة وسلامة الباطن والتزام السنة وبغض البدعة صفات نبيلة طيبة ، ينبغي أن يتحلى بها المسلم ، لكنه في المقابل ينبغي أن يتخلى عن صفات : الشح والغفلة والظلم وقلة الرأي وضعف الهمة ، فإن واحدة من هذه الصفات القبيحة كفيلة بتضييع الكثير من الصفات النبيلة .

وإذا كان المستعصم قد جمع هذه الصفات ، وهو خليفة المسلمين ، فهنا تكمن الكارثة ؛ لأن قلة الرأي – مثلا – من الصفات القبيحة التي تهدم صفات حسنة كثيرة ، فهي تمنع صاحبها من محو البدعة ، حيث لا تكفي صفة (بغض البدعة) في خليفة ، إذ لابد أن تجتمع معها القدرة على محوها ، ولن تأتي هذه

القدرة إلا في رجل حازم ، سديد الرأي ، يقظ القلب والعقل ، عالي الهمة ، وهي صفات يفتقدها المستعصم .

كما أن (قلة الرأي) تضعف صفات (الحلم والكرم وحسن الديانة وسلامة القلب) ؛ فإن صُحبة الأشرار مثلا تميت هذه الخلال ، وإذا تسلط الأشرار برأيهم على من عنده (قلة رأي) مَحَوا شخصيته ، وأضعفوا حماسه لهذه الخلال الطيبة ، ثم ما تلبث أن تتلاشى .

وإذا كان المستعصم قد تحلى بالعلم ، لكنه ترك الأمر لوزيره ، ولم يكن متيقظا ، فإن علمه لا ينفع ؛ إذ لابد للعالم أن يعمل بعلمه ، فإن قيل : إنه ترك الأمر لرجل عالم، فهودليل على عدم الإفادة من العلم الذي وهبه الله له ؛ لأن حياة العلم مذاكرته ، وعلم لا ينفع صاحبه ، كذهب مخزون في باطن الأرض لا يفيد شيئا.

وإذا كان المستعصم قد روى أربعين حديثا ، فهذا من دلائل الحفظ والإتقان فكيف يترك نعمة وهبها الله له،ثم يركن إلى الغفلة وعدم التيقظ،ويضع الأمر الذي كلفه الله به في يد غيره وهو خليفة المسلمين الذي ينبغي ان يكون صاحب الرأي والقرار في مصالح البلاد والعباد؟!

وفضلا عن ذلك فإن الصفات الطيبة التي سبق ذكرها من حلم وكرم وحسن ديانة وسلامة باطن وتمسك بالسنة وبغض للبدعة ، كلها صفات شخصية يعود نفعها على صاحبها فقط ، وهي وحدها قد تكفي إن وجدت في رجل مسلم من العامة ، لكنها لا تكفي أن تجتمع في خليفة المسلمين ، بل لابد من إضافة صفات أخرى مثل : اليقظة ، والحزم ، وعلو الهمة ، وسداد الرأي، وقوة العزيمة ؛ لأن هذه الصفات يتعدى نفعها إلى العامة ، وهي من الأمور اللازم توافرها في من يتولى قيادة أمة . ولهذا كان ابن تيمية رحمه الله تعالى يرى أن الحاكم العادل الفاجر يقدّم على الحاكم الظالم التقي ؛ لأن الحاكم العادل

يكون عدله لصالح المسلمين، وفجوره على نفسه ، أما الحاكم الظالم فظلمه يكون للرعية ، وتقواه في نفسه .

ومن المعلوم أن حب المال مركوز في فطرة الإنسان ، فقد قال الله تعالى : ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1] ، لكن هذا الحب للمال لا يعني الاستيلاء عليه واستحلاله بغير وجه حق ، لذلك علق ابن كثير على ما فعله الخليفة بقوله : " فاستقبح هذا من مثل الخليفة ، وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير ، بل من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، كما قال الله تعالى : (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما)[2] " .

فهل تؤهل هذه الصفات - التي سبق ذكرها مجتمعة - خليفة المسلمين ليواجه جحافل التتار، ويتصدى لهم ؟!

الحق هو أن هذا هو أول بداية لسقوط الخلافة ، فالخليفة الذي لا يستطيع السيطرة على نوازعه الشخصية ، ولا يملك إصدار قرار ، ويترك أمر العباد والبلاد لوزيره ، ولا يدري ما يحيك له أعداؤه ، وتحجب عنه أخبار تمس أمن البلاد ، وأعجب من ذلك أنه لو بلغته الأخبار ما صنع شيئا ، لا ينبغي أن يحسب في عداد الخلفاء ؛ فقد قال ابن العماد : " أخذ لؤلؤ صاحب الموصل يهيئ للتتار الإقامات ، ويكاتب الخليفة سرا ، فكان ابن العلقمي لا يدع تلك المكاتبات تصل إلى الخليفة، مع أنها لو وصلت لما أجدت لأن الخليفة كان يرد الأمر إليه "[3]. وقال الذهبي في سنة ٦٥٥ هـ : " ترددت رسل

---

[1] سورة الفجر : آية ٢٠ .

[2] قال تعالى : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الآية (٧٥) من سورة آل عمران .

[3] شذرات الذهب ج: ٣ ص: ٢٧٠ .

هولاكو ، وفر أمينه إلى بغداد إلى ناس بعد ناس ، والمستعصم لا يدرى بشيء ، ولو درى لما درأ "[1] .

ثالثا : ومما يؤسف له ما كان عليه الخليفة حال دخول المغول بغداد ، ووصولهم إلى دار الخلافة ، حيث كان ينادم راقصة بين يديه ، فجاءها سهم طائش ، من إحدى الشبابيك ، فقتلت وهي ترقص ، فكان رد الفعل من الخليفة الذي انزعج انزعاجا شديدا ، هو أن أحضر السهم ، وقرأ ما كتب عليه ، فإذا هو : (إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم) ، فأمر الخليفة بزيادة الاحتراز ، وكثرة الستائر على دار الخلافة .

فهل يغني حذر من قدر ؟! وهل زيادة الاحتراز تكون بزيادة الستائر ؟!

وإذا كان الخليفة قد بلغ به الحال أن يلهو في مثل هذا الوقت الذي تحيط فيه جحافل المغول كل نواحي القصر ، بل ترسل سهما يصل إلى مجلس لهوه!!! .

فهل يمكن أن نبعد المسئولية عنه ؛ لأنه كان تقيا ؟!!

وهل من التقوى ، وحسن الديانة اللهو في مثل هذه الأوقات ؟!!

وعلى هذا فإن الخليفة يتحمل العبء الأكبر في دخول التتار إلى بلاد المسلمين ، لكنه ينبغي أن نقف مع ما فعله الوزير ابن العقمي ، ونتساءل : هل يتحمل هذا الوزير مسؤولية دخول التتار إلى البلاد ؟ وما أسباب ذلك ؟ إن الإجابة عن ذلك تستدعي أن ننظر في حياة ابن العلقمي ، ثم نناقش ما قيل عنه في مدى تورطه في العلاقة بالتتار .

هل يتحمل الوزير ابن العلقمي المسؤولية أيضا ؟

الوزير ابن العلقمي هو – كما قال ابن العماد –:" مؤيد الدين محمد بن أحمد وزير الإمام المستعصم بالله، كان فاضلا متغاليا في التشيع إلى غاية ما

---

[1] العبرفي خبر من غبر ج: ٥ ص: ٢٢٠

يكون ، عـامل التتار ؛ ليظفر ببغيته، فلم ينل منهم ذلك، وكان ينشد وهو فـي حالة الهوان :وجرى القضاء بعكس ما أملته([1]).

وقال في طبقات أعلام الشيعة : هو " محمد بن أحمد بن محمـد بـن علي، الملك الوزير مؤيد الدين أبو طالب ابن العلقمي، كان في خدمـة خالـه عضد الدين القمي رئيس دار الإنشاء للمستنصر، ثم جلس مكان خاله.

وقال ابن الفوطي في الحوادث الجامعة([2]): إنه كان أستاذ دار الخلافـة ببغداد ، وفي يوم الأحد ثامن ربيع الأول استدعي إلى دار الـوزارة ونصـب وزيرا ، وفي تاسع ربيع الأول ٦٤٣ هـ صار محيى الدين يوسف بن الجوزي أستاذ الدار ، وأجلس في الدار المقابلة لباب الفردوس المرسومة بسكنى الأستاذ دارية . وجاء في تجارب السلف ص ٣٥٨ : أن مكتبته الخاصة كانت تحتوي على عشرة آلاف نسخة، وكلمـا فرغ من مهام الوزارة كان يشتغل بمكتبتـه ، له كتاب في المناقب ، نقل فيه ما ذكره السيد أبو الفتح يحيى بن محمد بن نصر بن علي بن حبا لتلميذه في سنة (٥٤٠ هـ) من معجزة الإمام الباقر، ثم نقل الفيض الكاشاني عن هذا الكتاب في المحجة البيضاء (٢ / ٣٧٦).

وكان ابن العلقمي وأخوه وولده عز الدين أبو الفضل محمد صـاحب المخزن ، كلهم من أصدقاء رضي الدين علي بن طاوس ، وقد قرأ ابن العلقمي على العلماء ، فنقل عنه صاحب الرياض: أني تلمذت على عميـد الرؤسـاء حتى توفي ٦٠٩هـ ، وقد أملى عليه أبو محمد بن أبي البركـات ص ١٥٣ ، وأجاز له في٣ صفر ٦٤٨ هـ .

ولأجل ابن العلقمي ألف عز الدين بن أبـي الحديـد (ص ٨٩،٨٨) شرح نهج البلاغة، وأنشأ القصائد السبع العلويات ، كما نقل المجلسي ذلك في

([1]) شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٢) ابن الفوطي : كمال الدين عبد الرزاق : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة – تحقيق : مصطفى جواد – ط . بغداد سنة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م – ص ١٦٠ .

إجازات البحار عن خط شمس الدين محمد بن مكي الشهيد (٧٨٦ هـ) وذلك بواسطة مجموعة الجبعي . وقال في مجالس المؤمنين إن الحسن بن محمد الصنعاني (م ٦٥٠ هـ) ألف العباب الزاخر لهذا الوزير ومدحه في أوله كثيرا ، وتوفي الوزير ابن العلقمي بعد سقوط بغداد بيد المغول بعدة أشهر في الثاني من شهر جمادى الأولى سنة ٦٥٦ هـ "[١]

لقد اتصل الوزير ابن العلقمي بالتتار وحرضهم على دخول بغداد :

قال السيوطي : " ... والوزير العلقمي حريص على إزالة الدولة العباسية ونقلها إلى العلوية والرسل في السر بينه وبين التتار " ، وقال أيضا : " ثم إن الوزير كاتب التتار واطعمهم في البلاد وسهل عليهم ذلك وطلب أن يكون نائبهم فوعدوه بذلك وتأهبوا لقصد بغداد "[٢].

وقال ابن العماد : " شرعت التتار في فتح البلاد الإسلامية ..... والوزير مؤيد الدين وأتباع الخليفة يكاتبون هلاكو والرسل بينهم "[٣] . وبين سبب ذلك فقال : إن الوزير كان يريد أن " يقيم خليفة علويا ، فأرسل أخاه ومملوكه إلى هلاكو، وسهل عليه أخذ بغداد، وطلب أن يكون نائبا له عليها فوعدوه بالأماني "[٤] . وحجب الوزير المعلومات عن الخليفة . قال الذهبي في سنة ٦٥٥ هـ : " ترددت رسل هولاكو وفر أمينه إلى بغداد ، إلى ناس بعد ناس ، والمستعصم لا يدرى بشيء ، ولو درى لما درأ "[٥] .وقال ابن العماد : " أخذ لؤلؤ صاحب الموصل يهيئ للتتار الإقامات ، ويكاتب الخليفة سرا ،

---

[١] طبقات أعلام الشيعة _ الأنوار الساطعة في المائة السابعة : لآغا بزرك الطهراني - دار الكتاب العربي - بيروت - ط . الأولى سنة ١٩٧٢ م - تحقيق : علي نقي منزوي - ج ١ ص ١٤٩- ١٥١ .

[٢] تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٤٦٧ .

[٣] شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٥٥ .

[٤] شذرات الذهب ج: ٣ ص: ٢٧٠ .

[٥] العبر في خبر من غبر ج: ٥ ص: ٢٢٠

فكان ابن العلقمي لا يدع تلك المكاتبات تصل إلى الخليفة ،مع أنها لو وصلت لما أجدت لأن الخليفة كان يرد الأمر إليه "[1].

قال صاحب طبقات الشيعة ، وهو يترجم لابن العلقمي : " قال في الشذرات : كان فاضلا متغاليا في التشيع ، ودعا عليه بقوله : قاتله الله ، ولا رحمه ؛ بدعوى أنه تسبب في تسلط التتر على بغداد . وكذلك فعل اليافعي ، فقال في مرآة الجنان في حوادث ٦٥٦هـ : وفيها دخلت التتار بغداد ، وسبب دخولهم أن الملك المؤيد ابن العلقمي كاتبهم ، وحرضهم على قصد بغداد ؛ لأجل ما جرى على إخوانه الرافضة من النهب والخزي وظن أن الأمر يتم ويبقى خليفة علويا ، فأشار على المستعصم أني أخرج إليهم لتقرير الصلح ، فخرج الخبيث وتوثق لنفسه بالأمان ، ورجع ، وقال للخليفة : إنهم يريدون أن يكون الأمر كما كان لأجدادك مع السلجوقية ، فخرج المستعصم مع عدة فقتلوا . ثم قال اليافعي : وفيها توفي الوزير الرافضي ابن العلقمي ولي وزارة العراق ١٤ سنة ، وكان ذا حقد على أهل السنة ، فصار سبب دخول التتار بغداد ، ثم انعكس حاله ، وأكل يده ندما ، وبقي بعد تلك الرتبة الرفيعة في حالة وضيعة ، وولي مع غيره وزارة التتار على بغداد بطريق الشركة ، ثم مرض غما ، ومات بعد قليل . انتهى .

هذا ولكن كلام الذهبي واليافعي ، وأمثالهما لا يوافق الأسلوب العلمي للبحوث التاريخية ، فإن أهالي بغداد المختلفين فيما بينهم طائفيا ، والمترفين في العيش مع قلتهم لم يكونوا قادرين على المقاومة أكثر مما عملوه بيد ابن العلقمي في قبال مهاجمين متخلفين حضاريا ، وقليلي المؤنة اقتصاديا ، مع كثرة عددهم .

---

[1] شذرات الذهب ج: ٣ ص: ٢٧٠ .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة في التاريخ : فقد حصلت لروما أمام برابرة الشمال ، وفي بغداد نفسها أيضا قبل ستة قرون ، فإن الاضطهاد الطبقي في آخر العهد العباسي جعل الشعب يستظل التشيع ضد بلاط الخلفاء ، حتى إن توسع نفوذ الشيعة جعل بعض الخلفاء يلبسون الفتوة وخرقة التصوف بيد نقباء الشيعة تحت قبة الإمام علي بمشهد النجف،كما يذكر لنا ابن الفوطي

نعم .. لا شك في أن الردة الأخيرة ضد الشيعة واضطهادهم بيد رجال السنة القشريين وابن الخليفة نفسه على ما اعترف به اليافعي ، وذكر بعضها القاضي في مجالس المؤمنين ، كان له أثر في ضعضعة قوة الدفاع العام " [1] .

ومن خلال كلام صاحب طبقات الشيعة ، الذي يدافع به عن ابن العلقمي وفعلته يرى الباحث أن هذا الدفاع فوق تهافته ، يحمل في طياته بعض الحقائق التي تؤكد أن ابن العلقمي كان ضليعا في المؤامرة ، فمن ذلك :

أولا : إثبات أنه كان وزيرا لهولاكو بعد قتل الخليفة ، وهذا يدل على مدى العلاقة المشبوهة التي كانت بينه وبين هولاكو .

ثانيا : ومنها أن أهل بغداد لم يكونوا جميعا في حالة " فتنة طائفية " كما يصورها صاحب طبقات الشيعة ، بدليل وجود ابن العلقمي الشيعي وزيرا لخليفة سني .

ثالثا : كما أن أهل بغداد ليسوا جميعا " من المترفين " كما يصورها صاحب طبقات الشيعة أيضا ، بل كان فيهم الفقراء وذوي الحاجة .

رابعا : أما " قلة عدد أهل بغداد "،فإن ابن العلقمي كان السبب في تقليل عدد الجيش، فضلا عن تعمية أخبار التتار عن الخليفة، الذي كان يمكن أن يعبئ الناس تعبئة جهادية عامة.

---

[1] طبقات أعلام الشيعة ج ١ ص ١٥١ ، ١٥٢ .

خامسا : وأما ما فعله ابن العلقمي من ذهابه إلى هولاكو حاكم التتار لأخذ الصلح منه ، فإن هذا واجبه الطبيعي كوزير ، وفضلا عن ذلك ، فإن الذهبي ذكر أن ابن العلقمي عرض على الخليفة - وهولاكو محاصر لبغداد - أن يخرج إلى حاكم التتار ليعرض عليه الصلح ، ثم أسرع هو ليستوثق لنفسه ، فهل كان هذا الوزير نائما حتى جاء التتار ووقفوا على أبواب بغداد؟! ولعل الخليفة يكون قد طلب من ابن العلقمي أن يذهب إلى حاكم التتار بصفته وزير الدولة ، ثم إن سؤالا يطرح نفسه : ما الذي أعلم ابن العلقمي وهو في بغداد وجيش هولاكو يحاصرها أن هولاكو كان يريد الصلح ؟ .

سادسا:أما أن الناس استظلوا بالتشيع ضد الخلافة،فليس على هذا الكلام دليل تاريخي.

ثم يعود صاحب طبقات الشيعة ليرد على منهج اليافعي والذهبي التأريخي فيقول : "وما قاله عن الخلافة العلوية ، فافتراء ، ولم يكن للشيعة أي مرشح ، لذلك فإنهم وإن أنكروا الخلافة العباسية لكنهم لم يكونوا يعارضون مملكة عباسية إذا كانت تضمن الحريات الدينية، ولو بأقل مما ضمنته قبلهم الحكومة الشيعية بمصر، فكان عليهم أن يلوموا شيوخهم،وليس ابن العلقمي الذي خفف الدمار عنهم،ولو لم يكن دهاء ابن العلقمي لما اختلف مصير بغداد عن مصير تيسفون التي انقطع عنا جل أخبارها " [1].

ويتساءل الباحث مرة أخرى :

ما الذي فعله ابن العلقمي ليخفف الدمار الذي لحق عاصمة الخلافة الإسلامية ببغداد ؟! وما فائدة دهاء الوزير إذا لم يأت بخير على الناس ؟! وهل كان ابن العلقمي من السذاجة بحيث يعلن مرشحا علويا قبل سقوط الخلافة العباسية ؟! وإذا كان الشيعة قد أنكروا - كما أثبت صاحب طبقات الشيعة -

---

[1] طبقات أعلام الشيعة ج: ١ ص ١٥١ .

الخلافة العباسية ، فما المقصود بأنهم لم يعارضوا مملكة عباسية إذا ضمنت هامشا من الحريات الدينية ؟ وأي حرية دينية أكثر من أن يكون وزير دولة الخلافة السنية من أقطاب الشيعة ، الذين وصلت حرية الفكر عندهم إلى الحد الذي يصرح فيه صاحب طبقات الشيعة نفسه بالقول: " ولأجل ابن العلقمي ألف عز الدين ابن أبي الحديد (ص ٨٨ ، ٨٩) شرح نهج البلاغة ، وأنشأ القصائد السبع العلويات ، كما نقل المجلسي ذلك في إجازات البحار عن خط شمس الدين محمد بن مكي الشهيد (٧٨٦ هـ) وذلك بواسطة مجموعة الجبعي . وقال في مجالس المؤمنين إن الحسن بن محمد الصنعاني (٦٥٠ هـ) ألف العباب الزاخر لهذا الوزير ومدحه في أوله كثيرا "[1] ؟؟!!.

وما قول صاحب طبقات الشيعة في هذه الترجمة التي نقلها هو عن أحد أعلام الشيعة؟ حيث يقول: " محمد بن الحسن بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاوس الشريف النقيب مجد الدين بن عز الدين بن سعد الدين أبي إبراهيم الحسني المعروف بابن طاوس الحلي الداودي مؤلف البشارة الذي أهداه إلى هولاكو المغولي فسلم الحلة والنيل والمشهدين من القتل والنهب حين سقوط بغداد في ٦٥٦ هـ ورد إليه هولاكو النقابة بالبلاد الفراتية فحكم في ذلك قليلا ثم مات دارجا كما ذكر في عمدة الطالب وذكر أن أخاه قوام الدين احمد بن عز الدين الحسن كان أمير الحج ومات دارجا أيضا فانقرض عقب السيد عز الدين الحسن الذي هو أخ رضي الدين علي بن طاوس وقد فصل العلامة الحلي في الألفين شرح ما كتبه صاحب الترجمة مع معاصره سديد الدين يوسف والد العلامة من الرسالة إلى هولاكو في تحصيل الأمان لأهل الحلة "[2].

وفي ختام هذه القراءة التحليلية الموجزة لأحوال دولة الخلافة الإسلامية يمكن القول :

---

[1] طبقات أعلام الشيعة ج: ١ ص ١٥١ .

[2] طبقات أعلام الشيعة ج: ١ ص: ١٥٧

إن دولة الخلافة الإسلامية في عهد بني العباس قد وصلت في سنة ٦٥٦ هـ وما قبلها بقليل إلى حالة من الفراغ السياسي ، والاضطراب الاقتصادي ، والتدهور الاجتماعي ، والصراع الفكري المذهبي ، كان لها أبلغ الأثر في ضعف شأن الدولة ، فإذا أضيف إلى ذلك تنظيم قوات المغول ، وتصميمهم على اجتياح ديار المسلمين ، وهجماتهم الهمجية الشرسة ، واستمالة بعض قواد الدولة إليهم ، بل تعاون وزير الدولة معهم ، وتحسينه أمر دخولهم بغداد وإسقاط الخلافة الإسلامية السنية ، فضلا عن خذلان الخليفة ، وانهماكه في الملذات الدنيوية ، وعدم إدراكه لخطورة المسؤولية الملقاة على عاتقه ، كل هذا عجل بسقوط دولة الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت .

إن مخالفة سنن الله تعالى الكونية لتؤدي بشكل مباشر إلى الضياع والهلاك ، فانتشار الظلم مصيره الهلاك ، قال تعالى : (وكذلك أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا)

كما أن الترف الزائد يؤدي إلى الهلاك ، قال تعالى : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) .

لقد ترتب على سقوط الخلافة من الآثار ما كان كفيلا بذهاب ريح هذه الأمة ، فقد تعطلت الشريعة الإسلامية ، ولم يعد هناك من يسوس الدنيا ويحرس الدين ، وتسلط النصارى بدمشق على الناس ، وعابوا دين الإسلام ولم يجدوا من يجابههم ، وفسدت الحياة بسبب الوباء الذي حل بالبلاد ، وانتشرت الأمراض ، وفقدت الأمة عددا كبيرا من علمائها ، وضاع تراثها ، وظهرت الأفكار الإلحادية .

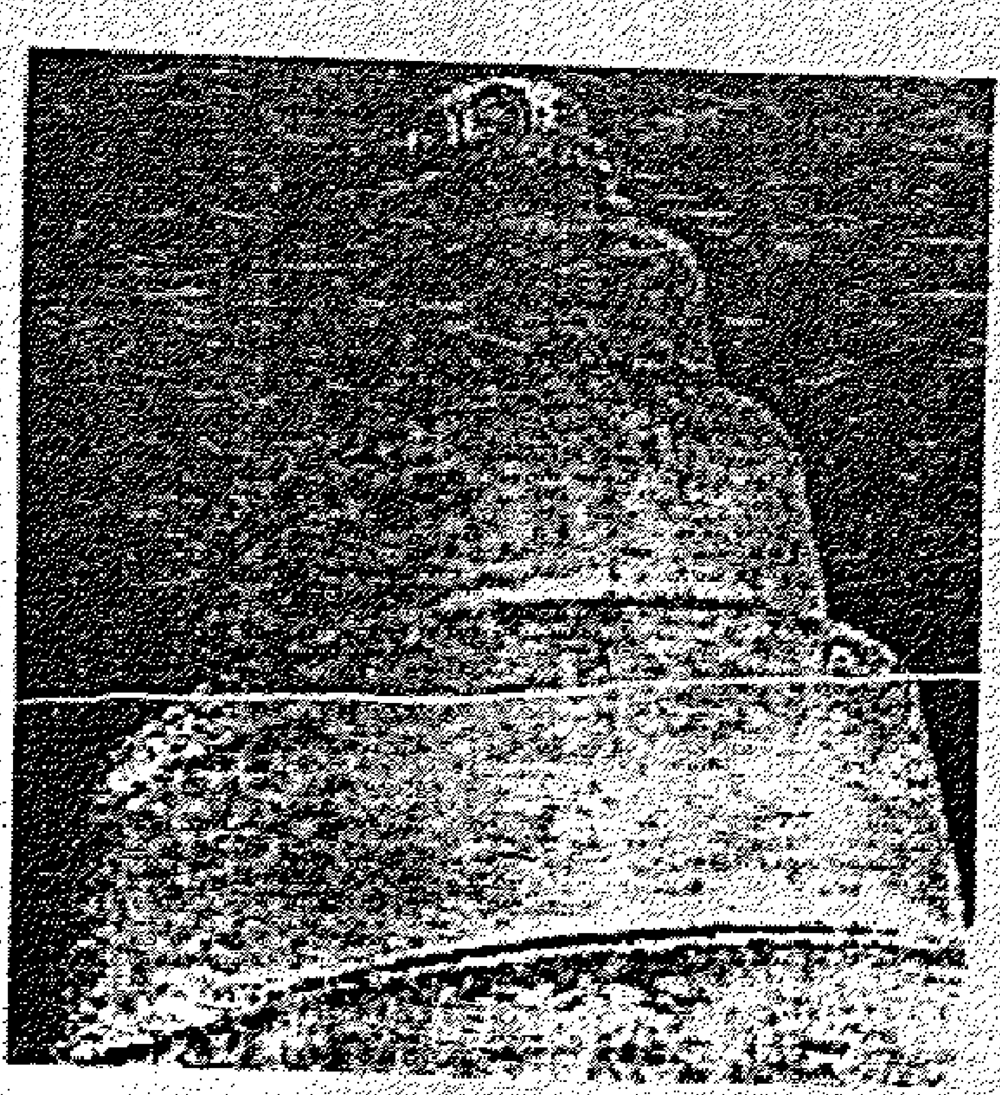
ومع كل هذا فلم تفقد الأمة هويتها ، وما هي إلا سنوات قليلة حتى عادت إلى رشدها ، ولقنت المغول درسا لا ينسى ، ودحرت جحافلهم ، وأبادت غطرستهم في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، ثم لم تلبث أن أعلنت الخلافة الإسلامية في القاهرة سنة ٦٥٩ هـ . ولم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد أن

رفعت راية الجهاد ، ووحدت كلمتها ، وأدركت أنه لن يصلح أمرها إلا بما صلح به أولها ، فالتفت حول البقية الباقية من علمائها ، وانطلقت في سبيل الله تجاهد أعداء هذا الدين في ثبات تام ويقين راسخ ، فكان النصر المبين ، وعادت الخلافة من جديد رمزا للوحدة الإسلامية .

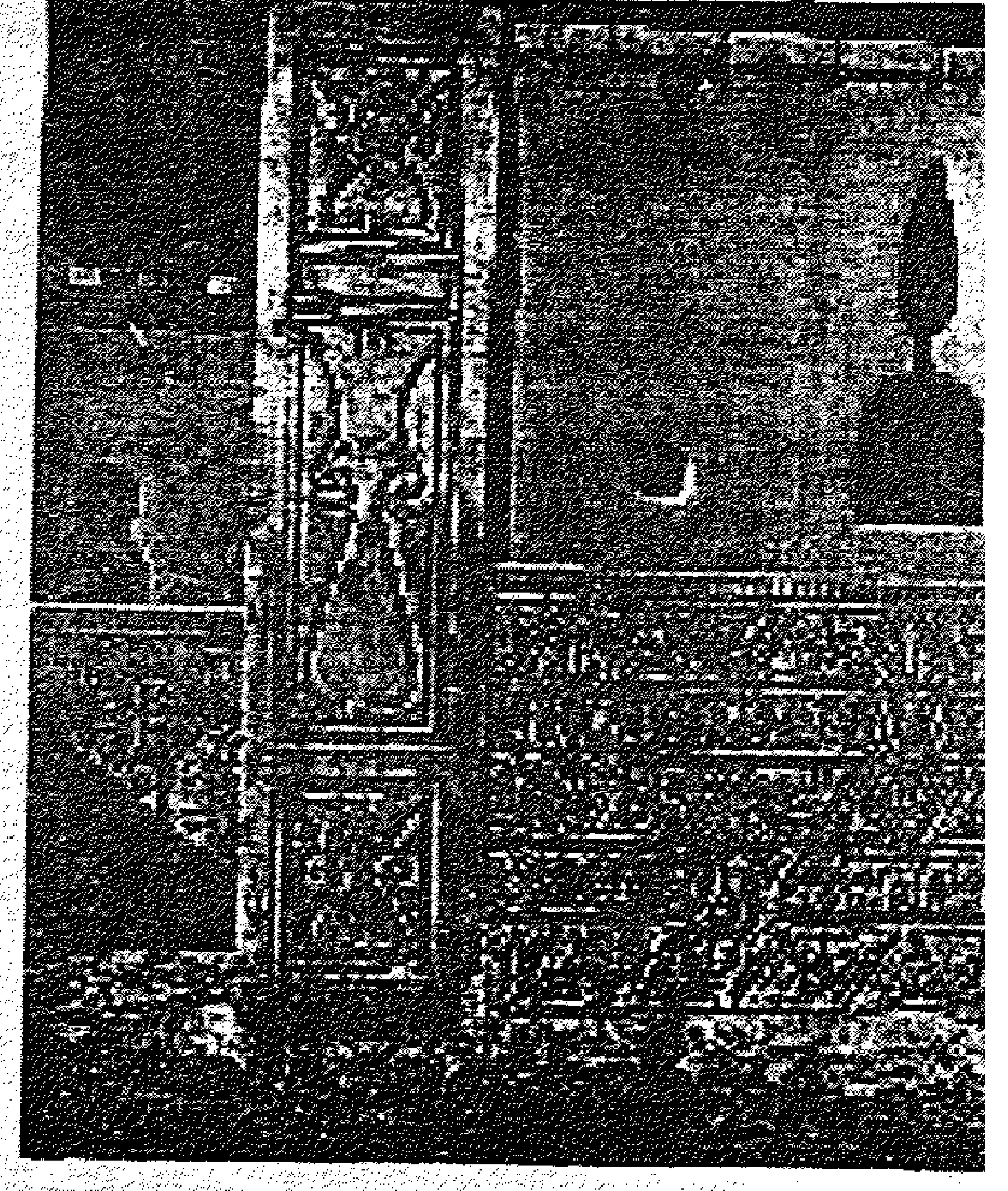
والحمد لله أولا وأخيرا ...



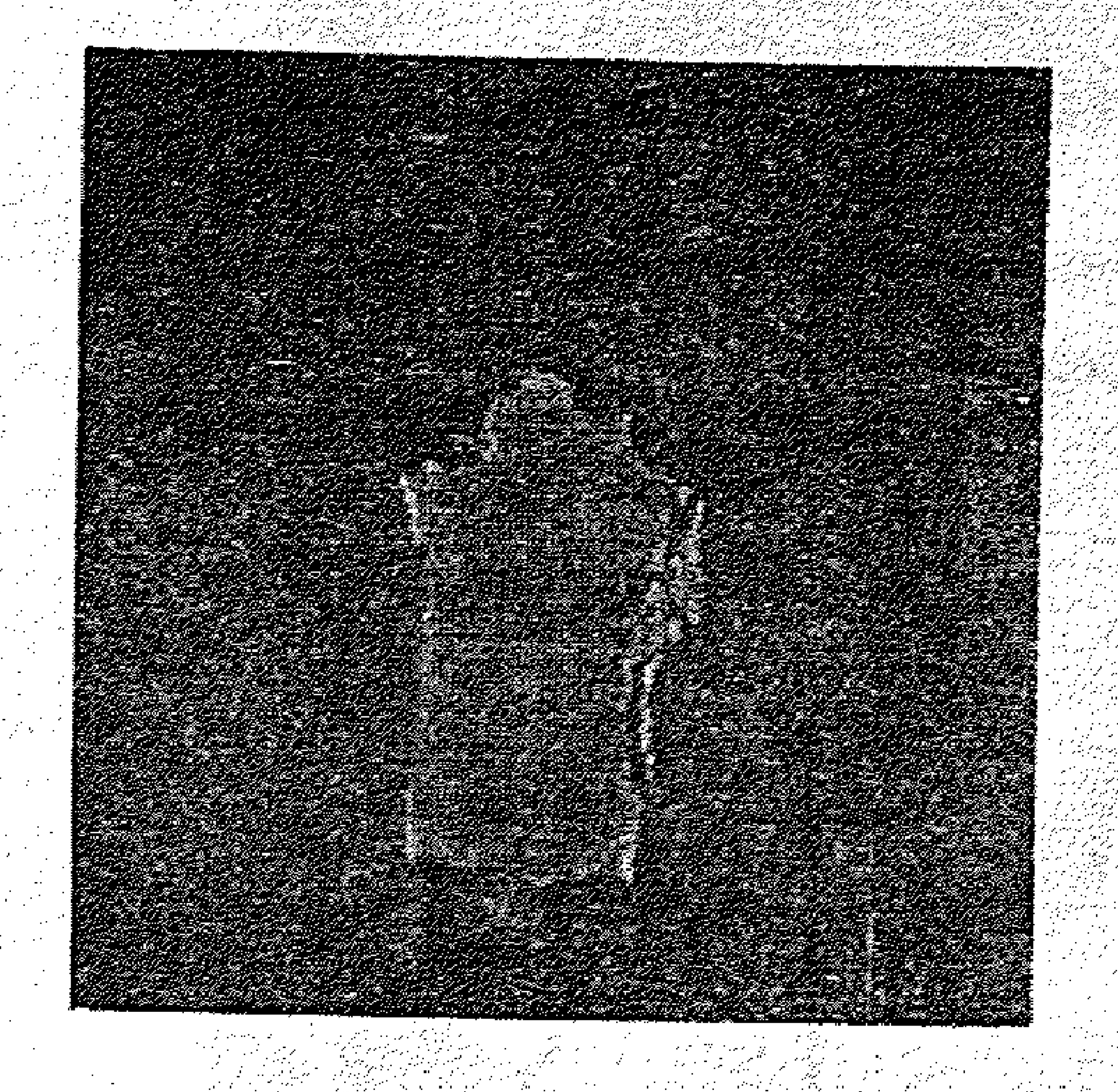
الحصن الذى يحيط بسامراء مبنى بحوائط قوية



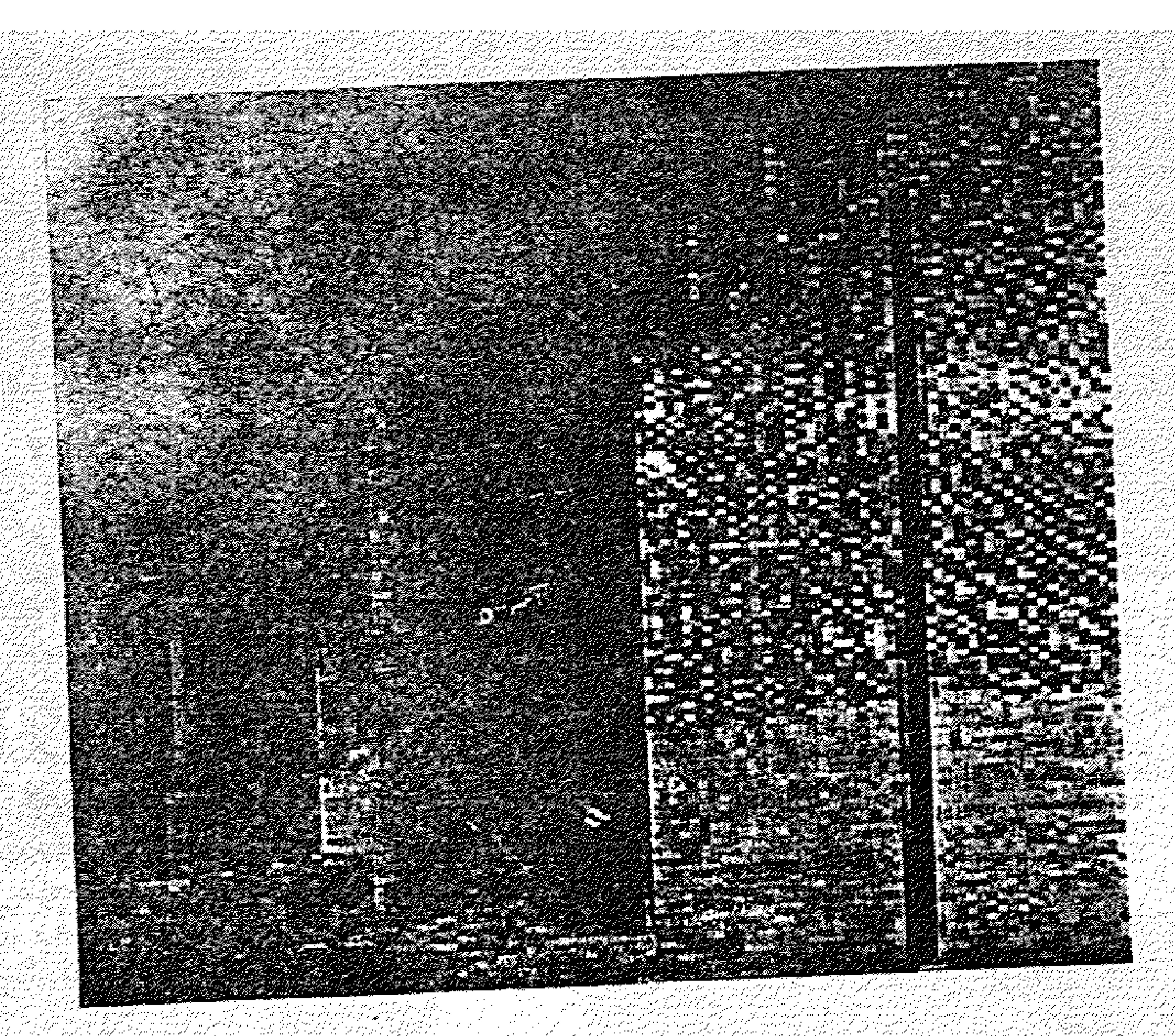
منارة جامع سامراء (تعنى سر من رأى) ما زالت باقية مءات السنين منذ إنشائها



صورة لحائط فى القصر عليه رسوم قريبة من رسوم الفن الفارسى



نافذة لإضائة الجامع وعدد النوافذ المماثلة ٢٤ نافذة وتؤدى إلى الخارج من خلال صالة أو منفذ



سور مدينى سامراء ويلاحظ أبراج نصف دائرية حتى تتحكم فى الدفاع عن الأسوار ضد المتسلقين من جيوش ألعداء



فهرس المحتويات

رقم الإيداع
٢٠١٠ / ٢٢٠٨٠

